

رواية

بوهوميل هرابال

عزلة صاخبة جداً

26.9.2017 (26)

ترجمها عن الإنكليزية:
منير عليمي

مراجعة وتدقيق:
منصور العمري



من الكتاب:

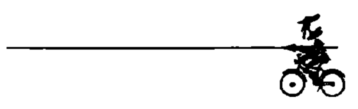
أُسرع مباشرة إلى عملي، إلى جبل من الأوراق، كما لو كنتُ آدم، وهو يستلقي بين الأعشاب، ثمّ ألتقط كتاباً. تنفتح عيناي على عالم غير عالمي؛ لأنني عندما أشرع في عملية قراءة، أكون في مكان معلوم ومختلف، أكون مع النصّ، نصّ مختلف ومذهل. عليّ أن أعترف أنني كنتُ أحلم، أحلم بأرض ما، بجمال عظيم. كنتُ في قلب الحقيقة. عشر مرّات في اليوم أتساءل أيّ إنسان غريب أنا؟! أيّ هدوء ينتابني وأنا أنعزل مع ذاتي وأهرب من نفسي؟! أذهب ناحية المنزل، أجوب الشوارع في صمت. في هدوء رهيب، أعبر والقطارات والسيارات والأرصفة في غيوم من الكُتُب التي جئتُ بها، وحملتُها في حقيبتي. أنا ضائع في أحلامي، أحياناً أجتاز الإشارات الضوئية؛ لأن حقيبتي مليئة بالكُتُب، وأخاف أن يستفسر أحد ما عن هويّتي، فلا أجيبه. أجوب الشوارع الصاخبة دون أن أجتاز الضوء الأحمر. أجوبها دون أدنى شعور. ولستُ قلقاً من ذلك، عندي شعور بنفسي، كما لو كنتُ كومة من الكُتُب المضغوطة. مقعد طيّار رائع، ضوء مندفع من الكارما، كما لو كان ضوء ثلاجة. نار أبدية، أحملها في حقيبتي. لذلك أنا أعود إلى منزلي مثل منزل محترق، أو زريبة. ضوء من الحياة ينسكب عبر النيران. النار التي تُولَد من الغابات الميتة، وتترك حزناً دفيناً، ينام تحت الرماد.

المتوسط


عزلة صاخبة جداً

المؤلف: بوهوميل هرابال / المترجم: منير عليمي / عنوان الكتاب: عزلة صاخبة جداً
الطبعة الأولى: ٢٠١٧.
صور الغلاف: من ثلاثية مقتبسة من الرواية، للفنان Vahid D.far.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-75-5



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

بوهوميل هرابال



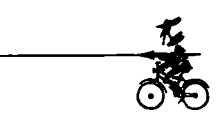
عزلة صاخبة جداً

ترجمها عن الإنكليزية:

منير عليمي

مراجعة وتدقيق:

منصور العمري



المتوسط







الفصل الأول

قضيتُ خمسة وثلاثين عاماً حتّى الآن بين الأوراق المهملة، وهي قصة عشقي. أجمعُ الورق المهمل والكُتُب منذ خمسة وثلاثين عاماً، وألطّخ نفسي بالحروف حتّى صرت أُشبه موسوعاتي. سحقت ثلاثة أطنان جيدة منها على مرّ السنين. أنا إبريق مملوء بالماء السِّحْريّ والنقي. تلقّيتُ تعليمي بشكل غير مقصود. لا أستطيع التمييز تماماً بين الأفكار التي تأتي منّي أو من كُتُبي. هذا ما أبقاني منسجماً مع نفسي ومع العالم حولي خلال الخمسة وثلاثين سنة الماضية. لأنّني عندما أقرأ، أنا لا أقرأ حقاً، بل أرمي جملة جميلة في فمي، وأمصّها كالسكاكر، أو أرشفها كشراب كحولي حلو، حتّى تذوب الفكرة داخلي كالكحول، وتتغلغل في العقل والقلب، ثمّ تتدفّق عبر الأوردة إلى جذر كل وعاء دموي. أراكمُ طنّين من الكُتُب وسطياً كل شهر. لكنْ؛ كي أستجمع قواي من أجل هذا العمل الإلهي، شربتُ كثيراً من البيرة خلال الخمسة وثلاثين عاماً الماضية، بما يكفي لملء مسبح أولمبي، أو مفرخة سمك بأكملها.

هذه الحكمة، تشكّلتْ لديّ بلا قصد. أنظرُ إلى عقلي كأنه كتلة من الأفكار، ضغطتْها السوائل، رزمة من الأفكار، ورأسي كمصباح علاء الدين المصقول واللامع.»

كم كانت جميلة تلك الأيام؛ حيث كان المكان الوحيد الذي في وسع الفكرة أن ترتاح فيه هو العقل، وكل مَن يرغب باستخراج هذه

الأفكار عليه فقط أن يضغط رؤوس الناس. حتّى هذا لن يجدي نفعاً، فالأفكار الحقيقية تأتي من الخارج، وتسافر معنا، كحساء النودلز الذي نأخذه معنا إلى العمل ...بلغة أخرى، يحرق المحقّقون الكُتُب بلا جدوى...إذا استطاع الكتاب التعبير سيحترق، وهو يضحك بهدوء... كل كتاب جدير بملحه سيظهر، ويبدي نفسه. اشتريتُ حاسبة الجامع - الطارح الجذرية الصغيرة. كانت آلة غريبة بحجم محفظة المال. بعد أن استجمعتُ قواي، دفعني الفضول لفتحها بمفكّ البراغي، فصعقتُ، وشعرتُ بالغيظ لعدم عثوري إلا على آلة غريبة أصغر حتّى...أصغر من طابع بريدي، وأرفع من عشر صفحات من كتاب... وذاك الهواء... هواء مليء بمتغيّرات رياضية...عندما تحطّ عيناي على كتاب حقيقي، وتنظران إلى الكلمات المطبوعة، ما تريانه هو نوع من أفكار دون أجساد، تحلّق في الهواء، تنزلق في الهواء، تعتاش على الهواء، تعود إلى الهواء؛ لأن كل شيء في النهاية هو هواء، تماماً كحاملها، وليست دم المسيح. منذ خمس وثلاثين سنة، أسحق الأوراق والكُتُب العتيقة، أعيش في بلاد، عُرفت بتدريس كيفية القراءة والكتابة لخمسة عشر جيلاً...أعيش في زمن تُحكم فيه الممالك بالأعراف والهواجس...أعيش لأضغط الأفكار والصّور بصبر في رؤوس السّكّان، بذلك أقدّم لهم سعادة لا تُضاهى، أو ربمّا حزناً عظيماً. أعيش بين أناس في وسعهم الانحناء على كومة من الأفكار المضغوطة. والآن يتكرّر هذا المشهد أمامي. بعد خمس وثلاثين سنة، وأنا أضغط الزّرّ الأخضر والأحمر في آلة الهيدروليك. شربتُ البيرة لخمس وثلاثين سنة، ليس لأنني أنتشي بشربها، بل على العكس، أكره الكحوليين...أنا أشرب لأفكّر بعمق أكثر، أسافر نحو قلب ما، وأقرأ؛ لأنني لا أقرأ للمتعة، أو لقتل الوقت، أو لأخلد إلى النوم.

أنا، الإنسان الذي يعيش في بلاد معروفة بحبّها للقراءة والكتابة طيلة

خمسة عشر جيلاً...أشرب كي يمنعني ما أقرؤه من أن أغطّ في نوم أبدي، وأن أُصاب بهذيان رعاشي؛ لأني أشترك مع هيغل في نظريته أن الأنسان نبيل القلب ليس رجلاً نبيلاً بالضرورة، ولا مجرماً قاتلاً. لو كنتُ أستطيع الكتابة لكتبتُ عن أعظم أفراح الإنسانية وأحزانها. سيكون ذلك من خلال الكُتُب التي قرأتُها، والتي علّمتْني أن الجنّة ليست إنسانية، ولا أيّ شخص له رأس بين كتفيه هو إنساني، ليس الأمر أن البشر لا يريدون أن يكونوا إنسانيين، بل هو فقط يخالف المتعارف عليه. تفنى الكُتُب النادرة في آلة الضغط تحت كفيّ، ولا أستطيع إيقاف تدفّقها. أنا جزّار مجيد وحسب. الكُتُب علّمتني نشوة التّدمير. أعشق العواصف وانكسار البواخر. أستطيع أن أجلس ساعات بانتباه محدّقاً في مشاعر خبراء المتفجّرات، وهم يفجّرون منازل وشوارع بأكملها... وأن ألمح الفضاء، وهو يعجّ بالشظايا...لا أستطيع أن أكتفي بذلك منذ اللحظة الأولى، بل أعشق مَن يرفع العوارض والآجرّ والصخور، من أجل إخفائها، كملابس تتساقط، كنهر يغرق بنعومة في قاع المحيط عندما تبدأ المراجل بالانفجار. هناك أجلس في غيمة من الغبار...أجلس في الموسيقى الغوغائية. أفكّر في عملي بعمق...أفكّر في قبوي الذي يحوي آلة سحق الكُتُب. المكان الذي أخذ من عمري خمساً وثلاثين سنة...المكان المنار بالقليل من المصابيح الكهربائية؛ حيث أسمع فوقي خطوات تعبر السطح، تعبر فتحة في السقف...وهو أيضاً ثقب أسفل الساحة.

أرى بخور الجنّة في شكل حقائب وصناديق وعلب تتساقط منها أوراق قديمة، وأعواد الورود الذابلة، ورق اللّفّ، برامج مسرحيات انتهى وقتها، أوراق لفّ المثلّجات، أوراق ملوّنة، أوراق مبتلّة، أوراق دامية لجزّارين، أوراق قذفتْها استوديوهات التصوير.

داخل المستودع بعض التجهيزات لا تعدو أن تكون سوى صندوق لرمي الأوراق، آلة كاتبة، باقة زهور من أعياد ميلاد، أتلفتْها الأيام. أحيانا أجد قطعة حصى مدفونة في حزمة جرائد لتثقيلها، سكّين جيب، أو مقصّاً أو مطرقة، أو نبتة، أو ربمّا بعض أكواب القهوة الجافّة التي ظلّت في القاع، أو ربمّا بعض باقات ورد الزفاف مع أكاليل الجنائز.

منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أضغط تلك الأشياء في آلتي الهيدروليكية. ثلاث مرّات يتمّ نقلها في عربة في القطار، والذي بدوره ينقلها بتؤدة إلى مصنع عجين الورق؛ حيث تُنزع الأسلاك، ويُعجَنُ عملي، ويتحوّل إلى نوع من القلويات، أو نوع من الأسيد الذي يتمتّع بقوّة، تسمح له بأن يذوّب شفرات الحلاقة التي اعتدتُ أن أداعب عبرها كفّي. مثل سمكة لطيفة ستقفز في ماء نهر ملوّث يجري بين المصانع الممتدّة، ولكنْ؛ تطفو ورقة من عمود كتاب نادر؛ لتلمع. إذا ابتعدتْ، أقفز مباشرة خلفها من أجل إنقاذها، ثمّ أجفّفها فوق المئزر. أفتحها فوراً، وأنفث فيها، أُوجّه بصري إلى النصّ، وأقرأ أوّل جملة فيها، كما لو كنتُ أتتبّع نوتة هوميرية. بعد ذلك، أضعها بحذر مع بعض الأشياء الرائعة في عربة صغيرة مزوّدة بخطّ مؤثّث ببطاقات مقدّسة، رماها شخص ما في مستودعي البسيط بالخطأ. ثمّ يأتي دوري، لا أقرأ كل هذه الكُتُب وحسب، بل أضع كلاً منها في كومة؛ لأجمّلها، وأمنحها ختمي وتوقيعي، وأحرص دوماً أن أجعل كل كومة مميّزة عن الأخرى.

عليّ أن أمضي ساعتين إضافيّتين داخل القبو كل يوم، يجب عليّ أن أستيقظ قبل العمل بساعة، وأحياناً عليّ الذهاب إلى العمل يوم السبت، إذا أردتُ أن أعبر جبل الأوراق القديمة غير المتناهي. الشهر الذي مضى، رموا حوالي خمسة عشر ألف باوند من الأعمال الفنّيّة النفيسة التي أُعيد

إنتاجها، خمسة عشر ألف باوند من أعمال مبلّلة لرامبرانت وهولسيس ومونيه ومانيه وكليمتس وسيزان، وأعمال فنّيّة أوروبية عظيمة في قبوي، أستخدمها؛ لأجمّل أكوام الكُتُب، لتنتظر بكل روعتها مصعد الخدمة. لا يمكنني أن أُبعد عينيّ عنها: لوحة النوبة الليلية، وساسكيا، وهنا غداء على العشب، وهناك منزل الرجل المعلّق في أوفير، أو لوحة غويرنيكا. أنا الرجل الوحيد في هذا العالم الذي يعلم أنه في عمق أيّ كومة من الكُتُب يوجد كتاب مفتوح لفاوست أو دون كارلوس ...أرى رواية هايبريون دفينة مع بطاقات ملطّخة بالدماء. هناك على أكياس الإسمنت تجد كتاب هكذا تكلّم زرادشت. أنا الإنسان الوحيد الذي يعرف أيّة كومة فيها غوته أو شيلر أو هولدرين أو نيتشه. أنا فنّان وجمهور، في الوقت ذاته. لكن الضغط اليومي ينال منّي، ويجعل منّي فريسة للتعب، تحبطني، وتحرقني، وأواجه هذا الضغط، وأقلّل من جدّته بشرب البيرة. وأسلك طريقاً إلى الهوسنكي، من أجل الامتلاء. عليّ أن أتأقلم، وأحلم بشكل كومتي التالية.

السّبب الوحيد الذي يجعلني أتعاطى البيرة هو كي أستشرف المستقبل. ففي كل كومة من الكُتُب، أدفن بعض الآثار الغالية. مثلاً أدفن كفن طفل مزخرف مع زهور ذابلة وشَعر ملائكي.

صغتُ فراشاً جيداً من الكُتُب التي تُرمى فجأة في المستودع. هذا ما يجعلني دائماً في المؤخّرة من هذا العمل. لماذا امتلأت الباحة بالرّفوف المملوءة بالكُتُب القديمة. لا أستطيع الوصول إلى الفتحة في السّقف، بسبب جبال الورق في غرفتي، والتي تعوقني.

لذلك، سيّدي، بوجهه القرمزي والغاضب على الدّوام، يدسّ عصاه أمامه؛ كي يُبعد الأوراق من الساحة، ويصرخ في وجهي:

ـ هاتنا، أين أنت؟ أين أنت، بحقّ المسيح؟! متى ستتوقّف عن تعلُّقكَ بكل تلك الكُتُب، وتشرع في عملك؟! الفناء امتلأ بالكُتُب، وأنت لم تزل هناك جالساً ومنهمكاً في أحلامكَ.

أُسرع مباشرة إلى عملي، إلى جبل من الأوراق، كما لو كنتُ آدم، وهو يستلقي بين الأعشاب، ثمّ ألتقط كتاباً. تنفتح عيناي على عالم غير عالمي؛ لأنني عندما أشرع في عملية قراءة، أكون في مكان معلوم ومختلف، أكون مع النصّ، نصّ مختلف ومذهل. عليّ أن أعترف أنني كنتُ أحلم، أحلم بأرض ما، بجمال عظيم. كنتُ في قلب الحقيقة. عشر مرّات في اليوم أتساءل أيّ إنسان غريب أنا؟! أيّ هدوء ينتابني وأنا أنعزل مع ذاتي وأهرب من نفسي؟! أذهب ناحية المنزل، أجوب الشوارع في صمت. في هدوء رهيب، أعبر والقطارات والسيارات والأرصفة في غيوم من الكُتُب التي جئتُ بها، وحملتُها في حقيبتي. أنا ضائع في أحلامي، أحياناً أجتاز الإشارات الضوئية؛ لأن حقيبتي مليئة بالكُتُب، وأخاف أن يستفسر أحد ما عن هويّتي، فلا أجيبه. أجوب الشوارع الصاخبة دون أن أجتاز الضوء الأحمر. أجوبها دون أدنى شعور. ولستُ قلقاً من ذلك، عندي شعور بنفسي، كما لو كنتُ كومة من الكُتُب المضغوطة. مقعد طيّار رائع، ضوء مندفع من الكارما، كما لو كان ضوء ثلاجة. نار أبدية، أحملها في حقيبتي. لذلك أنا أعود إلى منزلي مثل منزل محترق، أو زريبة. ضوء من الحياة ينسكب عبر النيران. النار التي تُولَد من الغابات الميتة، وتترك حزناً دفيناً، ينام تحت الرماد.

منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أضغط الأوراق القديمة في آلة الضغط الهيدروليكي. عليّ أن أُكمل خمس سنوات، من أجل بلوغ سنّ التقاعد. سترافقني آلتي، لا أريد معاقبتها، سأحتفظ بها؛ لأنني سأقتنيها من

المؤسّسة. سأحملها معي إلى المنزل، وأُخفيها في مكان ما بين الأشجار في حديقة جدّي عندما يحين الوقت. سأضع كومة واحدة في اليوم، لكنْ؛ أية كومة؟ خلاصة كل الأكوام. سأسكب فيها كل الأوهام التي علقتْ في رأسي. كل شيء أعلمه، كل شيء أحمله، كل شيء تعلّمتُه طيلة خمس وثلاثين سنة من العمل. أخيرا سأعمل بأوامر الروح فقط عندما تُلهمني. كومة واحدة من ثلاثة أطنان من الكُتُب في المنزل، كومة لن أخجل منها، سآخذ وقتاً مسبقاً؛ لأفكّر فيها، وأحلم بها. عندما أضع الكُتُب في آلة الضغط، سأضع عليها الزينة، وبمجرد تشغيل الآلة. عندما تنتهي السنة، سيكون لي معرضي، سأقوم بتدشين معرض من أكوام الكُتُب في الحديقة، وكل هؤلاء الذين سيأتون سيتمكّنون من رؤية عالمهم تحت مرآي، وعندما يشعّ الضوء الأخضر، ويبدأ الضغط بالتصاعد، ويشرع في حركته المتصاعدة بقوّة ساحقاً الكُتُب مع الورود، ومع كل تلك الأشياء التي رفض الناس اقتناءها. المتفرّجون العاشقون سيعيشون تجاربهم الشخصية مع عملية السّحق عبر الآلة الهيدروليكية.

لكنني الآن في منزلي، أجلس على كرسي، رأسي يتداعى، وسرعان ما أرفعه، فقط عندما تصطدم شفتاي الرطبتان بركبتي. أحياناً أجثم في مكاني إلى منتصف اللّيل، وعندما أستيقظ، أجد جسدي منكمشاً ومُكوّراً مثل قطّة في الشتاء أو كرسي.

أرفع رأسي؛ لأرى ركبة بنطالي مبلّلة باللّعاب. أستطيع أن أكون أنا ذاتي؛ لأنّني لستُ وحيداً، ولكني بمفردي ببساطة، أعيش في عزلتي المزدحمة. متهوّراً بين اللانهاية، ورمزاي الأبدية واللانهاية اللذان بديا يُشبهان أمثالي.

الفصل الثاني

منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أسحق الأوراق القديمة. أصبح لديّ كُتُب رائعة، دفنتُها في مستودعي. لو كان لديّ ثلاثة مستودعات، لامتلأتْ. مع نهاية الحرب العالمية الثانية، رمى شخص مجموعة من الكُتُب عالية الجودة في الآلة الهيدروليكية. عندما هدأتُ بما يكفي من أجل فتحها. ما رأيتُه كان طابعاً للمكتبة الروسية. وبعد أيام، وجدت المستودع يعجّ بكمّيّات كبيرة من الكُتُب نفسها. كانت كُتُباً جلدية مذهّبة، وعناوينها تُغرق الهواء بنورها. سابقتُ الدرج؛ لأرى الأشخاص الموجودين هناك. ما وجدتُه لأضغطه كان قرب «نوفي ستراشيتسي»، كان هناك مستودع مليء بعديد من الكُتُب المَرمية في الأعشاب. كُتُب في وسعها أن تأخذ عينيك حتّى تُذيب عقلكَ. ذهبتُ لأرى عامل المكتبة العسكري، ثمّ ذهبنا سويّة إلى "نوفي ستراشيتسي". وهناك في الحقول، لم نجد حظيرة واحدة، بل ثلاث مليئة بكُتُب المكتبة الروسية الملكية. تبادلنا حديثاً جميلاً، كان ذلك بمفعول مجموعة من العربات العسكرية التي استغرقت أسبوعاً لنقل الكُتُب إلى وزارة الشؤون الخارجية في براغ؛ حيث توجّب عليهم الانتظار حتّى الانتهاء من تنزيل الحمولة.

أعلنت المكتبة الروسية رسمياً عن الغنيمة، وبدأ فيلق العربات العسكرية بنقل كل المجلّدات ذات الحواف والعناوين الذهبية عبر سكك القطار؛ ليتمّ نقلها بعد ذلك في سيارات كبيرة تحت المطر. عندما كانت

تنزل إلى الأسفل، كان الماء يتدفّق عبرها، كان ماء ذهبيا مُزِجَ بالسخام وحبر الطباعة المتدفّق.

حسناً، أنا فقط وقفتُ هناك، انحنيتُ على عمود الكهرباء مندهشاً، وعندما ابتلع الضباب آخر سيارة، شعرتُ بأن الأمطار تمتزج بدموعي. في طريق العودة من المحطّة، رأيتُ شرطياً بزيّه الرسمي. توسّلتُ له أن يضع أغلاله في يديّ. توسّلتُ إليه بأن يقتنع بجريمتي. أنا مجرم حقاً. أنا مجرم في حقّ الإنسانية. وعندما استجاب لي، وقبض عليّ، كان يضحك محاولاً إخافتي بسجني. مع مرور السنوات، تعوّدتُ على ذلك. كل ما أفعله أني آخذ جلّ مكتبات المدينة من قصورها. أحمل الكُتُب المذهّبة والمُغرية والجميلة والبسيطة. كل كيلوغرام من الكُتُب النادرة يعادل كرونة بعد تحويل العملة. تكمن قوّة خلف تلك الأشياء تمكّنني من رؤية العالم الذي يكمن خلف سوء الطالع بهدوء. أن أُبقي على مشاعري.

بدأتُ أفهم جمالية التدمير. شحنت كثير من سيارات الشحن وكثير من القطارات التي غادرت المحطّة المتّجهة إلى الغرب بسعر كرونة واحد مقابل كيلوغرام واحد. وقفتُ هناك أحدّق، إلى أن غاب الضوء الأحمر مع آخر سيارة. انحنيتُ على عمود الكهرباء مثل «ليوناردو دي فنشي» الذي انحنى مثلي، وحدّق في الجيوش الفرنسية، وهي تستغلّ تمثاله هدفاً للرمي. ترمي الفارس والحصان تدريجياً. فكّرتُ كيف استطاع «ليوناردو» مثلي أن يكون شاهداً على مثل هذا الرعب بهدوء رهيب، وأن الجنّة لم تكن إنسانية، ولا حتّى الشخص الذي لديه رأس بين كتفيه.

في ذلك الوقت، وصلني خبر احتضار أمّي، لذلك قفزتُ مباشرة إلى درّاجتي، وذهبتُ إلى البيت، لكنْ؛ حدث أن شعرتُ بعطش. هرعتُ إلى المستودع، وأخذتُ كأساً من الفخّار مليئاً بالحليب الحامض. أخذتُه بكلتا

يديّ، كنتُ أتجرّعه بشراهة. كنتُ شديد العطش، إلى أن رأيتُ عينين تتدفّقان أمامي. كنتُ شديد العطش، وهذا ما جعلني أنهمك في عملية شرب، إلى أن أغلقتُ عينيّ مع دخول القاطرة إلى القناة مسرعة ليلاً. وفجأة أخذتني العيون، وامتلأ فمي بشيء يعجّ بالحياة. سحبتُ ضفدعاً من ساقه، وأخذتُه إلى مكانه في الحديقة، ثمّ عدتُ، ونظّفتُ الحليب عن ليوناردو.

عندما ماتت أمّي، بكيتُ نفسي قليلاً، لكنْ: لم تظهر ولو دمعة على خدّي. غادرتُ المحرقة، ورأيتُ الدخان يتصاعد من المدخنة، ويملأ السماء. رأيتُ أمّي وهي تسلك طريقها نحو الجنّة، ولكنْ: قبل ذلك، قرّرتُ أن آخذ رحلة تحت السقف. بعد ذلك كله، هم لم يفعلوا شيئاً مع البشرية مثلما فعلتُ أنا في كوخي هذا مع الكُتُب. وعموماً، انتظرتُ إلى أن انتهت المهمّة، ورأيتُهم يحرقون أربع جثث مرّة واحدة. جثّة أمّي كانت الثالثة. بدت بلا حراك في الحالة النهائية للبشر. أنظر إلى رفيقي، وهو يلتقط عظامه، يطحنها في طاحونة يدوية، يطحن أمّي معها، ويترك رمادها في صندوق حديدي.

كل ما كان عليّ فعله، أن أستسلم للمشهد، وأنظر. مثلما نظرتُ إلى القطارات التي حملتْ أروع المكتبات إلى سويسرا والنمسا بكرونة واحدة للكيلوغرام. أقف هناك، وأفكّر بأبيات ساندبرغ في أن كل ما يتبقّى من الإنسان هو فسفور، يكفي لصناعة علبة أعواد الثقاب أو مسمار من الحديد.

مضى شهر على وفاتها. أخذتُ ما تبقّى من رمادها في جرّة إلى خالي. سِرتُ نحوه إلى حديقته، إلى برجه اللامع، كان يقول لها عودي أخيراً إلى بيتك. عندما قدّمتُ إليه الجرّة، تفقّدها بكلتا يديه، وقال إن ما تبقّى

منها قليل جداً. كانت تزن قرابة مئة وخمسة وستّين باوند عندما كانت على قيد الحياة. قام بوزن بقاياها بميزان، وبعد ذلك، جلس وقال إن هناك ثلاثة أرباع أونصة منها. وضع الجرّة في خزانة الملابس، ومرّة في ذلك الصيف، أخذ الجرّة، وفتحها، وقام بذَرّ رمادها على نبتة الكرنب التي أكلناها فيما بعد.

أستطيع أن أسمع طويلاً تكسُّر هياكل عظمية، كلّما دخلت الآلة الهيدروليكية المرحلة الأخيرة من عملها، وقامت بسَحْق الكُتُب الجميلة بقوّة عشرين درجة. أستطيع أن أسمع تهشُّم الهياكل العظمية. بينما أسحق جماجم وعظام الأعمال الكلاسيكية وعظامها، كأني أسمع التلمود يقول: «نحن أشبه بحبّات زيتون. فقط عندما نُسحَقُ نُظهر أفضل ما لدينا».

عندما تنتهي عملية السحق، أضع كل كومة على حدة، وأقوم بشَدّها بشريط فولاذي، أقوم بدفعها بإحكام، وهكذا يتسنى لي أن أمنع أية محاولة من الكُتُب للاندفاع. أفكّر فقط بمّا سيحلّ بصدر الرجل القوي المندفع الذي مزّق الأغلال عبر دفع الهواء بعنف في صدره. ولكن الكومة الآن في مأمن، إنها في قبضة أشرطة الفولاذ.

كل شيء هادئ في الداخل، تماما كالهدوء الذي يخيّم داخل جرة الرماد. بوقار قمتُ بوضعها بجانب شقيقاتها. كنتُ متأكّداً من أنها ستتكاثر قبالتي عبر تحريكها؛ لأن الأسبوع الذي شرعتُ فيه بالعمل على ألف نسخة من أعمال «رامبرانت راين»، ألف لوحة لفنان عجوز ذي وجه الفطر، كان وجهاً لرجل يندفع في اتجاه الأبدية عبر فنّ ممزوج بالشرب. قبضة الباب تبدأ بالدوران، آخر باب يُفتح دون سبب، وبيد مجهولة لغريب. وجهه أشبه بفطيرة منتفخة، وجه مسلوخ. أبدأ بالابتسام في وجه ابتسامته البليدة. أبدأ بالنظر إلى العالم من زاوية أخرى، من ظروف الإنسان وطقوسه. كل الأكوام

هذه الأيام تتزيّن بلوحات «رامبرانت راين» كرجل عجوز، أما أنا؛ فأنهمك في ملء صندوقي بالأوراق المهملة والكُتُب المفتوحة.

انتبهت اليوم لأوّل مرّة إلى أنني أوقفتُ البحث عن الفئران وأعشاشها وعائلاتها. عندما أرمي فئراناً صغيرة عمياء تقفز الأمّ خلفها متمسّكة بها، وتشارك قدر الكلاسيكيات والأوراق القديمة. لن تصدّق عدد الفئران في مستودعي، مئتان ربّما أو خمسمئة، أغلبها هذه المخلوقات الغريبة اللطيفة تولد نصف عمياء. لكنْ؛ هناك شيء نشترك فيه. عشق رهيب للأغلفة مع تفضيلنا لأغلفة كُتُب غوته وشيلر. كوخي حالياً مليء بالغمزات وبأصوات القضم. في أوقات فراغها تلعب الفئران كالقطط، تتسلّق جوانب الآلة، وتُصدر طقطقة على طول العمود الأفقي. لاحقاً يسند الزّرّ الأخضر؛ ليُعطي الأسطوانة إيقاعها في إيقاع متناسق، وتشرع في رمي الأوراق والفئران مُحدثة حالة من الغثيان. ينتهي إيقاع الآلة المقلق، لكن الفئران في ركن ما من المستودع تقف بجدّيّة على سيقانها الصغيرة. تُوجّه آذانها متسائلة ما سبب القلق هذا. ولكنْ؛ بما أن الفأر فقد مساره، ستنتهي اللحظة قريباً، وستستمر في ألعابها كالعادة في قَضْم الكُتُب.

لذّة الورقة في قِدَمها، كما لو كانت جنّة غارقة في القِدَم، أو خمراً مُعتّقة. حياتي محاطة بهذه الفئران، ولهذا أقدّم إليها جميع الأوراق ودعوات المساء التي تبدو كما لو كانت وجبة يومية. وتنتظر الحمّام، تستمع بانتهاء الأمور، وتقضي ساعات في لعق وتدفئة أجسادها بالورق. أحياناً أضيق ذرعاً بفئراني، فأخرج لشرب البيرة، وأهيم في تأمّل عميق، لأحلم وأنا أنتظر على الطاولة، وعندما أفتح معطفي لإخراج محفظتي، يقفز فأر على الطاولة، أو عندما أغادر يقفز فأران من بنطالي، فتُذعر النادلات، وتصعدنَ على الكراسي، تضعنَ أصابعهنّ في آذانهنّ، وتصرخنَ: أيها المجرم الحقير. أبتسمُ وحسب، ثمّ ألقي التحية مغادراً، وأنا أحمل تصوّرات كثيرة لكومتي التالية.

منذ خمسة وثلاثين عاماً أرمي كل الأكوام في آلتي، أشطب الأعوام والشهور والأيّام حتّى نتقاعد كلانا، آلتي وأنا. أحضر الكُتُب كل مساء في حقيبتي إلى المنزل. امتلأت شقّتي ذات الطابقين في هولشوفيتسه بالكُتُب، وهو حال القبو والسقيفة والمطبخ والمخزن، وحتّى الحمّام. كانت المساحة الخالية الوحيدة هي الطريق إلى النافذة والموقد. حتّى الحمّام، يوجد فيه مكان لأجلس فقط، ففوق المرحاض، حوالي خمسة أقدام فوق الأرض، لديّ سلسلة كاملة من الرفوف، وألواح مكدّسة حتّى السقف، تحمل أكثر من ألف باوند من الكُتُب. جلوس أو نهوض واحد لا مبال، أو وضع فرشاة واحدة على الرفّ، كفيل بأن ينهار عليّ طن من الكُتُب؛ ليرميني دون سروال. لم يكن هناك مجال حتّى لإضافة واحدة، فدفعت سريريّ باتجاه بعضهما، ووضعتُ ألواحاً فوقهما حتّى السقف؛ لأضع طنين إضافيين من الكُتُب التي أحضرتُها إلى المنزل على مرّ السنين. عندما أغفو أرى كابوساً بثقل طنّين. في بعض الأحيان، عندما أكون غير مبال بما فيه الكفاية لأتقلّب في أثناء نومي أو أصرخ أو أنتفض، أخشى أن أسمع الكُتُب تسقط؛ لأن رفع ركبتي أو صرخة واحدة كفيلة بسقوطها كانهيار جليدي؛ لتسحقني وفرة من الكُتُب النادرة مثل برغوث. أشعر في بعض الليالي أن الكُتُب تتآمر ضدّي؛ لأني أسحق مئة فأر بريء يومياً، وأنها تريد الانتقام منّي. حسناً يمكنها فعل ذلك؛ لأن معاصينا تطاردنا. أستلقي على ظهري شبه ثمل تحت مظلّة من أميال وأميال من النصوص، وأحاول جاهداً كي أتجاهل الأمر، ولكنْ؛ بعد ذلك أتذكّر عندما وجد عامل الغابة حيوان سمور في بطانة ثيابه، وبدلاً من قتله الحقّ؛ لأنه أكل بعض الدجاج، يدقّ مسماراً في رأسه، ويتركه؛ لينتفض ويصرخ حتّى يموت. بعد ذلك، أتذكّر كيف قُتل ابن عامل الغابة بشريط معدني مكهرب في أثناء إصلاحه خلاط الإسمنت.

تراءى لي خيال عامل الغابة أمس فجأة، تحت مظلّة سريري، وتذكّرتُ

عندما كان يشحذ عصاه كل مرّة يرى فيها قنفذاً متكوّراً، ويغرز عصاه الحادة في معدة القنفذ، كان بخيلاً؛ بحيث لم يكن ليخسر رصاصة. في يوم من الأيام، استلقى في فراشه وقد أصابه سرطان الكبد، قضى ثلاثة أشهر طويلة متكوّراً في سريره، مثل كل تلك القنافذ. انتفخ بطنه، وأُصيب بالهذيان قبل وفاته. هذه هي الأفكار التي تُشعرني بالخوف عندما أسمع الكُتُب فوقي تتآمر للانتقام. يُرعبني احتمال سحقها لي، وسقوطي من الطابق العلوي إلى السفلي كمصعد. أفضّل النوم في مقعدي قرب النافذة. أرى حياتي متناسبة بشكل جميل: في العمل لديّ كُتُب وزجاجات ومحابر وكبّاسات، تُمطر عليّ من فتحة في سقف القبو، وفي المنزل لديّ كُتُب فوقي، تهدّدني باستمرار بالسقوط عليّ وقتلي، أو على الأقلّ، تشويهي. سيوف ديموكليز التي علّقتُها في سقفَي الحمّام وغرفة النوم تُجبرني على مقارعة البيرة في المنزل، كما في العمل، فهي دفاعي الوحيد ضدّ البؤس الجميل.

أزور عمّي مرّة في الشهر، وأبحث في حديقة منزله عن مكان لوضع آلتي عندما نتقاعد. كانت فكرة إنقاذ الآلة الهيدروليكية وشرائها عندما أتقاعد له، وليست لي. أمضى أربعين عاماً كعامل سكك حديدية، يرفع ويخفض البوّابات على المعابر، أربعين عاماً وهو يعمل في برج الإشارة، أربعين عاماً لا يستمتع بشيء سوى عمله مثلي. عندما تقاعد، اكتشف أنه لا يستطيع العيش دون برج إشارة، لذلك اشترى برجاً مستعملاً من محطّة حدودية، لم يعد قيد الاستخدام، وأحضره إلى حديقة منزله. بعد ذلك، أحضر بعض من أصدقائه المهندسين المتقاعدين قاطرة صغيرة من صنع شركة أورينتشاين وكوبل، كانت تسحب حاويات القمامة والعربات في مصانع الصلب. أحضروا أيضاً بعض السكك وثلاثة عربات وجدوها بين أكوام الخردة، في مكان ما. وضعوا السكك في الحديقة القديمة، وحول أشجارها، وأصبحوا يحرّكون عربات أورينتشاين وكوبل كل سبت

وأحد. كان يسمحون للأطفال بالصعود؛ ليأخذوهم في رحلة عبر السكك بعد الظهر، وفي المساء، يشربون البيرة، ويغنّون. أحياناً يصعدون جميعاً في العربات؛ ليبدو المشهد كتمثال إله نهر النيل؛ حيث يجلس أدونيس عارياً وعليه تماثيل صغيرة.

ذهبتُ في أحد الأيّام لرؤية عمّي، ولأبحث عن مكان لآلتي، ومع حلول الليل، بدأ القطار بأضوائه المتوهّجة بالدوران حول أشجار التفّاح والكمثرى بسرعة قصوى. رأيتُه يجلس في برج الإشارة، منشغلاً بمفاتيح التحكّم، وكان إبريقه يعكس الوميض المتقطّع، ويلمع مثل جميع أجزاء عربات أورينتشاين وكوبل.

منذ أن مشيتُ خلف صياح الأطفال وشتائم العجائز دون أن يهتف بي أحدهم للانضمام، أو يقوم بطرح سؤال إذا ما كنتُ أريد الشرب... كانوا دائماً منهمكين في ألعابهم التي لا تبدو شيئاً في النهاية غير طقوس يومية تماماً كالوظيفة التي يستمتعون بها كامل حياتهم.

أنا ببساطة أظلّ أمشي، أسلك طريقي مثل قابيل، وبعد ذلك، بعد أن أمشي مدّة ساعة أو أكثر أعود لأرى ما إذا كان أحدهم يناديني. ما رأيتُه أنْ لا أحد كان يعيرني اهتماماً. عندما أعبر البوّابة أعود مرّة أخيرة، ما رأيتُه مع إضاءة العمود الكهربائي والعمود الذي ينير برشاقة. كان مضطرباً كرسم بياني، كان القطار يلاحقهم بصفّاراته مُحدثاً ضجيجاً، متابعاً رحلته إلى أن تأتي رحلة أخرى. موسيقى أورغن تُكرِّر إيقاعها، اللحن جذّاب، ولا رغبة لي في سماع لحن آخر، إذا ما ظللتُ على قيد الحياة. لذلك لم يرني أحد. كنتُ أتجوّل بين الأشجار. رفع يده عن مفاتيح التحكّم، ولوّح لي بأصابعه بحركة غريبة، كما لو كان يحاول تحريك الهواء. لوّحتُ له عبر الظلام. بدونا حينها كما لو كنّا نودّع بعضنا من قطارين يندفعان بجهتين متعاكستين.

عندما بلغتُ ضواحي براغ، اشتريتُ بعض النقانق، كنتُ خائفاً؛ لأنني عندما كنتُ أرفعها إلى فمي، كنتُ أشعر أنّها تنظّف شفَتيّ الدافئتين. وعندما كنتُ أنظر إلى الأسفل، كنتُ أضعها في مستوى خصري. رأيتُ نهايتها الأخرى تلامس حذائي. ولكنْ؛ عندما رفعتُها بكلتا يديّ، بدت عادية جداً، وبهذا علمتُ أنني تقلّصتُ في آخر عشر سنوات.

عندما عدتُ إلى المنزل، دفعتُ مئتَي كتاب عن باب المطبخ، ووجدتُ الأسطر التي اعتدتُ أن أخطّها بقلم لا يمُحى خطُّه؛ كي أرى طولي في تاريخ محدّد. أخذتُ كتاباً، وقفتُ على هيكل الباب، ودفعتُ الكتاب على رأسي. عندما عدتُ إلى المكان رسمتُ خطّاً آخراً. أستطيع أن أُخبر بعين مجرّدة أنني في ثماني سنوات تقلّصتُ أربع بوصات. لا بد أني تقلّصتُ تحت ثقل مظلّة الكُتُب التي تزن طنّين.

الفصل الثالث

منذ خمس وثلاثين سنة، وأنا أجمع الأوراق القديمة، إذا توجّب عليّ اختيار عمل آخر، فسأظل في عملي هذا الذي أخذ من حياتي ثلاثة عقود. تتحوّل حياتي من نسقها الإيجابي إلى نسقها السلبي، وتتحوّل الغرفة بدورها إلى جحيم. الأوراق المهملة المكدّسة يزداد طولها؛ لتبلغ السقف، نديّة ومتعفّنة، متخمّرة وتبدو كسماد لزج، كمستنقع ينحلّ في أعماق قبوي. فقاعات ترتفع إلى السّطح، كما لو كانت خيوطاً من دخان تنبثق من الطّين المتعفّن. عليّ أن أستنشق هواء آخر، عليّ أن أبتعد عن الآلة الهيدروليكية، لكنّني لم أبتعد. لا أستطيع أن أستنشق الهواء النّقي، إنّه يجعلني أسعل وأختنق وألفظ اللّعاب، كما لو كنتُ أدخّن سيجارة هافانا. لذلك عندما يصرخ المدير، ويلوي كفّيه، ويصبُّ عليّ وابلاً من التّهديدات، أبتعد، وأقف مفتّشاً عن قبو آخر. أفضّلُ غرفة تحكّم التدفئة المركزية؛ حيث يقبع رجال بشهادات عليا، مُقيَّدين ككلاب، ويكتبون تاريخهم كبحث سوسيولوجي.

علمتُ أن المدينة الرابعة أُخليت من السكّان، وأن الطبقة العاملة غادرت القبو، وصعدتْ إلى البنية الفوقية، وكيف أن الأكاديميين تابعوا عملها. أعزّ أصدقائي كانا عضوين سابقين في أكاديمية العلوم، وعُيِّنا للعمل في أحد المجاري، لذلك قرّرا أن يؤلّفا كتاباً عن حياتهما حول حركتهما تحت براغ. كانا قد علّماني أن البراز الذي يدخل منشأة المجاري

أيّام الأحد من بودبابا يختلف عن ذلك الذي يدخل أيام الاثنين، وأن كل يوم يختلف عن الآخر. ويمكن رسم التدفّق في مخطّط بياني، ومن خلال ارتفاع أو انخفاض نسبة عقارات منع الحمل، يمكنك معرفة تواتر ممارسة الجنس في مناطق براغ. أذهلني أصدقائي اليوم بتقرير حربي. حرب شاملة وإنسانية بين فئران بيضاء وأخرى بنّيّة، والتي تنتهي بنصر مُطلق للفئران البيضاء التي تقودهم فوراً إلى انقسام في شكل مجموعتين، أو عشيرتين متقاتلتين. نوعان من فصيلة القوارض يدخلان في لحظة الموت والحياة، من أجل السيطرة على المجاري. ولكنْ؛ سرعان ما تنتهي الحرب. أصدقائي القدامى في أكاديمية أشغال المجاري أعلموني أن الفريق المنهزم سيُدمَّر قريباً مثل غازات أو حديد أو موادّ عضوية، ويؤول إلى نوعين من المعسكرات المتصارعة والمتناحرة. معركة السيطرة تُعيد الحياة والرغبة في إيجاد حلّ للمعركة بما يبشّر بتوازن قريب. العالم لم يتوقّف عن التعثّر ولو للحظة. أستطيع الآن أن أُثبت أحقّيّة «رامبو» عندما كتب أن معركة الروح مرعبة مثل كل حرب مسلّحة. أستطيع أن أستنشق المعنى الصحيح لكلمات المسيح القاسية «ما جئتُ لألقي سلاماً، بل سيفاً». وعليّ أن آخذ دروسي دون إرادتي.

كنتُ دائماً منبهراً بـ «هيغل»، بما أنه علمني أن المكان الوحيد على وجه الأرض الذي يكتسي أهمّيّة هي حالة يُحجَّر فيها الإنسان، ويتجمّد؛ ليشرع في الاحتضار. كل ما هو جميل في السعادة هو أن تكون وحيداً دون حاجتكَ إلى المجتمع. هم يشنّون حرباً من أجل معركة حاسمة، معركة من أجل إثبات الذات. أمشي في شوارع براغ حول الطريق المؤدّية إلى المستودع. أبصرتُ عبر الأشعّة، وحدّقتُ إلى الأسفل متفحّصاً الأرصفة المرئية في المجاري، من أجل إيجاد مجموعة من القوارض، وهي تحوك العمليات، من أجل بقية الجيوش. جنرالات الجرذان ينبحون مطلقين

أوامرهم عبر أجهزة الاتّصال حول الموضع الذي تركيز الضغط عليه. لكنني أكملتُ المشي مُنصتاً إلى صوت حادّ لفئران تُداس تحت قَدَمَيّ مُفكّراً في كآبة العالم الأبدية وسط هذا الكمّ الكبير من الدمار. عندما أنظر إلى أعلى عبر دموعي، أرى شيئاً لم أره من قبل، تحديداً واجهات المباني الحكومية أو الخاصّة. أستطيع أن أراها عبر المزاريب. تلك المزاريب التي انتقى منها هيغل وغوته أفكارهما. اليونان في ذواتنا، بأهدافها وطابعها الإغريقي. رأيتُ دورية وبالوعات مغطّاة بنسيج صوفي، رأيتُ أعمدة حلزونية. رأيتُ دهاليز بدت كما لو كانت قصوراً، كاتدرائيات، درابزين تلامس أسقف البيوت. رأيتُ ذلك كله في أقسام ضعيفة من هذه المدينة. اليونان تلازم كل المباني التقليدية. البوّابات مزيّنة بالرجال في المدارس والجامعات. قيل لي شرق أوروبا لم يبدأ خارج بوّابات براغ، بل بدأ في محطّة سكة الحديد الإمبراطورية في مكان ما من غاليسيا.

تشترك براغ مع الروح اليونانية... تذهب أعمق من واجهات البنايات. تذهب إلى رأس العامة مباشرة؛ لأن الجمنازيوم والجامعات الإنسانية قامت بحشو ملايين التشيكيين بالأفكار اليونانية والرومانية. وعندما يوفّر عمّال المجاري هذا المشهد في حرب بلا مشاعر بين جيوش الفئران، تتحوّل الأكواخ إلى مقرّ لملائكة براغ المتساقطة. الجامعة تُعلّم الإنسان الذي خسر معركة بأنهم لم يقاتلوا أبداً، بل هم في طريق متواصل، من أجل صياغة صورة أجمل لهذا العالم.

عندما عدتُ إلى قبوي، رأيتُ فأراً يركض ويقفز من أجل أن يقول أهلاً. فكّرتُ بالفتحة التي في زرّ المصعد، وبعامل المجاري الذي أخذه إلى الوادي. نزلتُ السلّم ماسكاً بقواي... أزحتُ الغطاء جانباً، وأنصتُّ إلى خرير مياه المجاري وتصفيق الماء في المراحيض، إلى إيقاع تسرُّبها من حوض الاستحمام، إلى صدى الشواطئ.

سمعتُ الفئران وهي تُبحر عبر نعيقها وقضمها للّحم. كانت سعيدة ومبتهجة. كانت الأجساد ترتطم، والمعركة تندفع. ينبعث صوتها من بعيد. انتهيتُ من حرب الفئران، وعلمتُ أنها ستنتهي في النهاية باحتفال، إلى أن تجد سبباً آخراً مُقنعاً، من أجل الشروع في حرب أخرى. وضعتُ الغطاء، وعدتُ إلى عملي، مُدجّجاً بمعلوماتي الجديدة حول حرب شرسة أخرى، ستدور رحاها الآن تحت قَدَمَيّ. وإن لم تكن حرباً بين فئران، فستكون حرباً بين بشر. ولكنْ؛ كيف سأكون أنا، بعد خمس وثلاثين سنة من جَمْع الكُتُب القديمة...أنا أكبر مثل فأر يعيش داخل مستودع طوال الوقت. لا أحبّ الاستحمام، رغم أنه لدينا حمّام خلف مكتب المدير؛ لأنني إذا استحممتُ، أعلم أنني سآتي بشيء ما. عليّ أن أذهب إلى المشرفة على الصحّة، أنا أعمل بيدين فارغتين، لا أستطيع غسلهما حتّى الليل؛ لأنني إذا قمتُ بغسلهما مرّات عديدة في اليوم، سيُدمَّر جسدي. لكنني أحياناً، نتيجة لشوقي إلى النموذج اليوناني للجمال، سأغسل إحدى قَدَمَيّ، أو رقبتي. وفي الأسبوع التالي، أغسل قَدَمي الأخرى وذراعاً واحدة. وعندما يأتي أحد الأعياد الدينية سأغسل صدري وقَدَمَيّ. ولكنْ؛ في تلك الحالة سأتناول مضادّات حساسية مسبقاً؛ لأنّني قد أُصاب بحمّى القشّ حتّى وإن كان هناك ثلج على الأرض.

الآن أنا في غرفتي، أقوم بضغط الكُتُب، وترصيفها. أضع عملاً فلسفياً كلاسيكياً في كل كومة. أشعر أن جسدي مرتاحاً هذا الصباح بعد تنزّهي في براغ، وأن عقلي خال من الشوائب؛ لأنني لستُ وحيداً؛ لأن في براغ آلاف مثلي يشتغلون في الهامش في الأقبية... ولديهم أفكار حَيّة ومُلهمة في رؤوسهم. هدّأتُ من روعي قليلاً، فعملي يسير بنسق إيجابي، أفضل من الأمس.

سأنزلق في رحم الزمن، إلى شبابي، عندما كنتُ أكوي سراويلي، وألمّع أحذيتي كلّ يوم سبت؛ لأنّك عندما تكون طفلاً تُرغَم دائماً على أن تكون نقياً، تحبّ صورتك الذاتية، الصورة التي تتجسّد في ذاتك. ويكون عليك دائما الحفاظ عليها، وتطويرها. على كل حال، تدور المكواة في الهواء، إلى أن تندفع حرارة الجهات المتغضّنة، أغطّيها بقطعة قماش أخرى. في النّهاية، أقوم بعملية كيّ حذرة جداً خصوصاً للسّاق اليمنى، بما أنّها دائماً مهترئة، بسبب عادتي في الركوع على الأوساخ بعد رمي القناني الخشبية. في النّهاية، عندما يُخيّم عليّ التّعب، أضع القبّعة جانباً، وأستجمع أنفاسي؛ كي أرى إذا تمّت تسوية الخطوط العالقة؛ لأنّني حينها لن يتوجّب عليّ إلا أن أرتدي سراويلي، وأقف مثلما أفعل كل يوم سبت في ساحة القرية، قبل أن أصل إلى كومة الخشب عند لوار تافيرن. أستدير، وأستطيع أن أرى أمّي، وهي تنظر ما إذا كان كل شيء على ما يرام.

إنه المساء، أنا في حفلة رقص، في انتظار ماري، مانسا مثلما أخاطبها. الفتاة ذات الأشرطة المتدلّية، الأشرطة التي تُزيّن شعرها. فرقة موسيقيّة تعزف، وأنا أرقص معها. العالم يطوف بنا، كما لو كان كوكبة خيل. عندما رأيتُ مانسا تسرّبتْ في داخلي قناعة أنّنا نستطيع أن نرقص البولكا. رأيتُ أشرطة مانسا، وهي تتأرجح حولي. تتراقص مع الرّيح. وكنتُ كلّما شعرتُ برغبة في التوقّف، بدأت الأشرطة في التّدلّي. أخذتُها، وطفت بها ثانية مُحدّقاً في يدَيّ، الأصابع التي تمُسك بيديها اللّتين غُطّيتا بقطعة قماش مُطرّزة. أوّل مرّة أخبرتُها أنّني أحبّها، وهمستْ لي بأنّها تحبّني أيضاً، كانت أيّام المدرسة. وبعد ذلك، احتضنتْني، وضغطتْ عليّ، كنّا قريبَين، كما لم نكن كذلك من قبل. طلبت منّي أن أكون شريكها كاختيار من امرأة. صرختُ نعم، لمَ لا؟! لكنْ؛ لم يبقَ وجهها وضّاء، بل خيّم عليه الشّحوب.

عندما عادت، كانت يداها باردتين، بدأنا ثانية في عملية طواف أخرى، كل شخص يرانا سيلمح راقصين ماهرين. كم كنّا رائعين معاً، يا لنا من عاشقين! عندما كنّا نرقص البولكا كنّا نصل إلى أقصى درجات النشوة. بدأتْ شرائط مانسا تُحلّق في الهواء. بشرائطها التي كانت بنّيّة اللون. اكتشفتُ أن العاشقين الآخرين قد توقّفوا عن الرقص، أو ربّما كانوا يهربون منّا قَرَفَاً. ثمّ أحاطوا بنا في حلقة كبيرة، لا للإعجاب بنا أو الهروب منّا، فقد كانت حركة رَقْصنا ترشّهم بشيء فظيع. لم نستطع أنا ومانسا تحديد ما هو، ركضتُ أمّ مانسا، وسحبتْها من يدها؛ لتركضا خارج قاعة الرقص بعيداً عن لوار تافيرن.

لن تعود مانسا ثانية، لن أراها مرّة أخرى. ما حدث أن مانسا كانت سعيدة جداً باختيارها كامرأة. كانت سعيدة جداً عندما قلتُ لها أحبّكِ، فهرعتْ إلى قاعة الرقص، ودون أن تدرك تلوُّث شريطها بالبراز عندما جلستْ على المرحاض، وعندما ركضتْ إلى قاعة الرقص، بدأ البراز يتطاير من شريطها على الراقصين مع دورانها، ومنذ ذلك الوقت، اكتسبتْ اسم مانسا الحمقاء.

أضغط الأوراق المهملة، وعندما أضغط الزّرّ الأخضر تبدأ الآلة باندفاع، وعندما أضغط الزّرّ الأحمر تتراجع، وهذا يصف حركة العالم الأساسية مثل طويات الأكورديون التي تعود دائماً إلى نقطة البداية. مانسا تخلّت عن مجدها، تخلّت عن المجد، غادرت بعار، لم تتسبّب فيه. مادام كل الذي حصل بشرياً أكثر من اللازم. كان غوته ليسامح إيلريك ليفتزو بخصوص الشريط، ويمكن أن يسامح شيلنغ كارولين، ولكنْ؛ يبدو أن ليبنيز لن يسامح خليلته المليكة صوفي كارولين، لعدم قولها شيء عن هولدرلين فائق الحساسية وزوجته غونتراد.

بعد خمس سنوات عندما وجدتُها، بعد أن رحلت العائلة إلى مورافيا للهروب من الشريط، سألتُها الصفح؛ لأنني أشعر دائماً بأنني مُلام على جميع الأشياء التي تحدث. كل شيء تصفّحتُه في الأوراق المهملة. في النهاية، صفحتّ عنّي. لذلك قمتُ بدعوتها إلى رحلة؛ لأنني فزتُ بخمسة آلاف كرونة في لعبة قمار. لا أستطيع الانتظار، أنا أكره المال، أكره الحديث عن حساب بنكي لجَمْع الأموال.

ذهبنا إلى رينير في غولدن بيك. نزل باذخ يساعد على صرف المال بسرعة، ولا يجعلكَ تلوم نفسك على إهداره. كل ليلة كان الزبائن يسعون إلى التقرُّب من مانسا؛ لأَخْذها منّي خصوصاً أحد المصنّعين، وعلى ما أذكر، كان حزيناً، لكنني كنتُ سعيداً؛ لأنني كنتُ أصرف المال. أصرفه على أيّ شيء تعشقه قلوبنا. كان ذلك أواخر شهر شباط/نوفمبر، الشمس تبزغ كل يوم، كل يوم تذهب مانسا إلى التزلّج، تُحلّق مع كل تجاوز لهضبة دون أن ترتدي قفّازات، كانت ترتدي معطفاً، كانت مُحاطة بالرجال، بينما كنتُ جالساً وأرتشف الكونياك؛ حيث يجتمع الرجال كل ظهيرة في الساحة المقابلة لواجهة النزل.

تظلّ مانسا تتزلّج إلى أن يحين الغداء، الوقت الذي تقفز فيه مباشرة إلى النزل. في آخر أيّامنا هناك، أو اليوم قبل الأخير، لم أُنفق غير خمسمئة كرونة. كنتُ جالساً وسط كوكبة من الزبائن نشاهد مانسا السمراء والجميلة تُحلّق في قمّة غولدن بيك. كنتُ جالساً، وأطرق كؤوس النبيذ مع السيّد جينا صاحب المصنع الذي أخذني بدوره إلى صاحب مصنع آخر؛ لأراها تختفي خلف أجمة من أشجار الصنوبر والتنوب، ثمّ تعاود الظهور؛ لتُكمل رحلتها السريعة، وتعود إلى النزل ككل مرّة. كان يوماً شديد الروعة، وكانت الشمس مشعّة بدفئها، إلى درجة أن جميع الكراسي والأرائك كانت

محجوزة. كان أحد العاملين يجلب كراسي وأرائك إضافية. كانت مانسا تتنزّه. كان السيد جينا على حقّ، كانت جميلة كلوحة في ذلك اليوم، ولكنْ؛ عندما تجاوزتُ شمس الرهابين الأولى، رأيتُ أن نساء يلاحقنْها، ويضحكنَ، وكلّما اقتربتْ منّي، بدأتْ ضحكاتها ترتفع، الرجال الذين رأيتُهم كانوا مُرتخين على كراسيهم، رافعين صُحُفهم أمام وجوههم، مُتجنّبين أن تنحني عليهم، أو ربّما كانوا يبحثون عن ملجأ، يقيهم حرّ الشمس. عندما انزلقتْ نحوي، ما رأيتُه في زلاجاتها تحت نعلها، كان قطعة روث كبيرة، قطعة روث بحجم الأوراق التي تغنّى بها أورشليكي في قصيدته السامية، وبعد ذلك، علمتُ أن الوقت حان لبلوغ الفصل الثاني من حياتي مع مانسا. مانسا التي لم تعرف المجد من قبل، ولن تتخلّى عن العار.

حسناً، السيد جينا، رجل الأعمال أخذ بعين الاعتبار أهمّ عمل، قامتْ به مانسا بمزلاجها خلف أشجار الصنوبر في تلال الغولدن بيك. كان يوماً شاحباً. شابت الحُمرة وجه مانسا حتّى جذور شعر رأسها. الجنّة ليست إنسانية، ولا الشخص الذي يحمل رأساً بين كتفيه.

ها هنا أقف، أضغط كومة خلف أخرى. أترك الكتاب مفتوحاً على أهمّ فصل فيه، ولكنْ؛ وأنا أعمل، أفكاري كلها كانت مُنصبّة على مانسا، مانسا التي ساعدتْني على أن أشرب بما تبقّى من مال في تلك الليلة. ولكنْ؛ لا الشامبانيا ولا الكونياك في وسعه أن يأخذ صورة مانسا وهي تتنزّه أمام الجميع. أكملتُ بقية الليلة أترجّاها بأن تسامحني على ما حدث. لكنها رفضتْ. في الصباح الباكر، غادرتْ نزل رينير رافعة رأسها. كنتُ أُنصتُ إلى قولة لاوتزه «أنت تعلم عارها، ومع ذلك تسعى إلى مجدها». ذلك مثال رائع حول تلك المرأة.

فتحتُ كتاب الفضائل الكَنَسية على صفحة مناسبة، وضعتُه كما لو

كنتُ قدّيساً فوق هيكل آلة الضغط التي ملأتُها بالأوراق المُعدّة لتعليب ورق تغليف الفطائر وأكياس الإسمنت الفارغة. ضغطتُ الزرّ الأخضر، بدأت الآلة بالتدافع كأصابع تتشابك في موضع سجود. رأيتُها وهي تسحق كتاب الفضائل الكَنَسية. شبكة جمعيات قادتْني إلى مانسا الجميلة التي قضيتُ معها شبابي. من الأنفاق والمجاري؛ حيث علق جيشان من الفئران في معركة مع الحياة والموت، أتى صوت مياه المجاري، مثل نصّ جوفي. كان اليوم جميلاً.

الفصل الرابع

في ظهيرة ما أحضر لي عمّال المسلخ حمولة كبيرة من الأوراق الملطّخة بالدماء مع صناديق مبلّلة بالدماء، عربة خلف أخرى، إلى درجة أنني لم أستطع أن أظلّ منتظراً؛ لأنها تحتوي على رائحة لذيذة، والتي تدفعني غالباً إلى أن أكون مُلطّخاً بالدم مثل مئزر جزّار. في نوع من الانتقام، غيّرتُ بثقة موضع كتاب كبير. كتاب مديح الحمق لإيراسموس روتردام إلى الكومة الأولى وكتاب لفريديريش شيلر إلى الكومة الثانية، إلى درجة أنني شعرتُ بأن الكلمات ستتحوّل إلى جسد دام. رميتُ كتاب هو ذا الإنسان لنيتشه في الكومة الثالثة. وعندما كنتُ أعمل، كان هناك فريق أشبه بعاصفة من الذباب قدم إليّ مع أوراق المجزرة. كان الذباب يطوف برأسي، ويئنّ مهاجماً وجهي.

بينما كنتُ أحتسي كأس البيرة الرابع، اكتشفتُ نظرة جميلة لرجل يقف بجانب الآلة. علمتُ لاحقاً أن مَن كان يجلس هنا هو المسيح نفسه. فجأة التحق به شخص ذو وجه مليء بالتجاعيد، وعلمتُ فوراً أنه لاوتزه؛ إذ كانا هناك جالسين جنباً إلى جنب. الأفضل بالنسبة لي أن أقارن بينهما. رجل عجوز وشابّ في مقتبل العمر. آلاف من حشرات بلون الكوبالت كانت تنتفض. أجنحتها المعدنية وأجسادها كانت تُزخرف لوحة ضخمة، تُصاغ فجأة بغطاء، وتندفع مثل تدفّق لرسومات لذلك الرهيب جاكسون بولوك.

لم أكن متفاجئاً بوجودهما معاً هناك. جدودي العظماء لديهم رؤى

عندما يشربون. لكنهم يرون شخصيات مثالية. التقى جدّي جميع أصناف عرائس البحر وكل الحوريات في رحلاته. جدّي العظيم يؤمن بالعفاريت، بالأشباح وبالجنّيّات اللائي رآهنّ في ليتوفل برويري لصنع البيرة. بالنسبة إليّ، في مدرستي التي لم أخترها، عندما أرتخي وأغرق في النوم تحت أطنان من سرادق الكُتُب. كنتُ أرى رؤى شيلنغ وهيغل اللذين وُلدا في السنة نفسها.

مرّة عندما كان إيراسموس روتردام فوق حصانه، سألني كيف أبلغ البحر. كنتُ مصعوقاً حين ظهر لي أهمّ ما أعشق. رأيتُهما جنباً إلى جنب. كم هي هامّة أعمارهما، من أجل فَهْم تعاليمهما عبر تحليق الذباب على خمرتي، وعلى السترة الملطّخة بالدماء. ضغطتُ الزرّ الأخضر مباشرة، ثمّ ضغطتُ الزرّ الأحمر. كنتُ أرى المسيح شابّاً متحمّساً منكبّاً على تغيير العالم، يرتفع ويأخذ مكان لاوتزه أعلى القمّة. عندما كان الرجل العجوز ينظر مذعناً إلى العودة إلى الخيوط التي تُمسك بالأبدية. رأيتُ المسيح وهو يُلقي بعض الصلوات على الحقيقة، ويقودها في اتّجاه المعجزة، بينما كان لاوتزه يتابع قوانين الطبيعة عبر التاو، الطريقة الوحيدة لنتعلّم الجهل. وفي لحظة، وجدتُ نفسي أملأ ذراعيّ بالنبيذ، بالأوراق الحمراء وفجأة لُطِّخ وجهي بالدماء. لاحقاً ضغطتُ على الزرّ الأخضر. بدأت الآلة تسحق الحشرات مع الأوراق القذرة، الحشرات المليئة بالدم لا تستطيع أن تُبعد نفسها عمّا تبقّى من اللحم، والتي كانت غبية لانسجامها مع رائحتها، والتي بدأت بالدوران والتزاوج. وعندما دفعتْها العاطفة إلى الرقص على ساق واحدة. رقصة موحشة. كوناً فلكاً ثقيلاً أساسه الجنون حول صندوق مليء بالورق، كما لو كانا نيترون وبروتون يطوفان حول ذرّة.

أشرب من كأسي، بينما كانت عيني جاثمة على المسيح الصغير،

كانت الغيرة تخيّم على الشباب والفتيات الجميلات. كان لاوتزه يبحث فقط عن قبر لائق. حتّى لو بلغ نسق الضغط آخر نقطة، وبدأت الأوراق في ضخّ الدماء وعصير الذباب الممزوج بالدماء. رأيتُ المسيح الصغير وهو لم يزل مشوّشاً بنشوة أن يصبح يافعاً، بينما كان لاوتزه ينحني بحزن شديد، ويفكر على حافة الصندوق، بازدراء، وغير مبال. رأيتُ المسيح وهو يُصدر الأوامر بثقة، يدع الجبال تندفع، بينما كان لاوتزه يخيط شبكة من العقل لا تُوصَف. رأيتُ المسيح في لولبية متفائلة، ولاوتزه في حلقة مغلقة. المسيح منتفش في حالة دراماتيكية، أما لاوتزه؛ فكان ضائعاً في فكرة حول الانحلال إلى صراع داخلي.

عندما اشتعل الضوء الأحمر، وبدأت آثار الدماء بالانقشاع، عدتُ لأرمي الصندوق والكرتون والأوراق الملطّخة بالدم والملفوفة في الصندوق، ولكنني وجدت قوّة أيضاً في أن أُلقي نظرة عابرة على نيتشه، أو على الأقلّ، على صفحات حول الصداقة الكونية مع ريتشارد فاغنر قبل أن أرميه في الصندوق، مثلما يرتمي طفل في حوض، من أجل صفع عاصفة الذباب الأخضر والأزرق التي تهاجم عينيّ مثل أوراق الصفصاف. في تلك اللحظة التي ضغطتُ فيها على الزرّ الأخضر في وسعه أن يأتي بخطى رشيقة، وينزل درج الكوخ عبر تنورتين. واحدة فيروزية اللون، وأخرى بنفسجية، تنّورتَين لغجريّتَين تأتيان غالباً مع الوحي. تأتيان عندما لا أتوقّع ذلك، وعندما اعتقدتُ أنهما ماتتا، بعد أن قطعتُ حنجرتيهما بسكّين الحبيب. هاتان الغجريتان اللتان كانتا تجمعان الأوراق المهملة، وتسحباها على ظهريهما في حزمة مثلما تحمل النساء حزم القشّ من الغابة في الأيّام الخوالي. تتهاديان في مشيتهما عبر الشوارع المزدحمة، والناس يقفون على الجانب الآخر من أجلهما، ثمّ يتراجعون في عتبات الأبواب. كانت أحمالهما كبيرة؛ بحيث كلّما أرادتا دخول ساحتنا، كانتا تُغلقان المدخل،

ثمّ تدخلان بصعوبة . تنحيان وتستديران وترميان كومة الأوراق. تتخلّصان من الأشرطة، وتتحرّران من قيدهما الكبير، وتتّجهان مباشرة إلى الميزان، وتمسحان جبهتيهما، تنظران إلى الشاشة التي تظهر غالباً خمسة وسبعين، وأحياناً مئة أو مئة وخمسة وعشرين باونداً من الأوراق والصفحات المهملة القادمة من الأسواق ومراكز التوزيع. عندما تبدآن في استباقي، وفي كلّ مرّة تقذفان إليّ الأوراق تكون الهدايا أشدّ روعة. كانتا في القطار، في وسعهما أن تأتيا من أجل دفع ثمن الزيارة. ترميان قطع القماش، وتسقطان على أكوام الأوراق الجافّة، وتقومان بلفّ تنّورتَيهما إلى بطنَيهما، ثمّ تقومان بلفّ سيجارة، وإيقادها. ترتميان على ظهريهما، تشهقان من مفعول الدخان، كما لو كانتا تمضغان الشوكولا. صرخت بتحية، وسرعان ما حُوصرتُ بجيش من الذباب. أستطيع أن أرى الغجريات بلونهنّ الفيروزي. كانت غجرية مُنحنية على ظهرها، وتنّورتها أعلى بطنها. فخذاها جذّابان، بطنها عار، شعرها يتماوج مثل نار، يدها تحت منديل يحتضن الظلمة، شعر رطب، ينساب على رقبتها، الأخرى ترفع سيجارة، وتضعها بين شفتَيها، آه، كم تبدو صادقة ومنهكة، منهكة من قِبَل مُشغّليها المُستبدّين.

حقيبتي تختصر عالمي، آخذ فيها السلامي والخبز عندما أكون في طريقي إلى العمل. لم آخذها معي إلى المنزل؛ لأنني لا أستطيع أكل أيّ شيء عندما أكون ثملاً؛ لأن السعادة تغمرني رغم الجهد إلا أنني أظلّ ممتلئاً.

لفّت الفتاتان نفسيهما بالورق، كما لو كانتا كرسيَّيْن حجريَّيْن، ووضعتا السجائر في شفاههما، واندفعتا نحو الحقيقة. أربع أياد تأخذ السلامي، تقتسمانه بالتساوي، وتقومان لاحقاً بنفث السجائر في تناغم. تدفعانه بكعب حذائيهما. جلسنا، وبدأنا العمل.

عندما انتهينا من تنظيف السلامي، بدأنا بالخبز، وكم كنتُ منشرحاً وأنا أراهما، وتأكلان فجأة وبجدّيّة. تبدآن بتفتيته بأصابعهما، وترفعان كل قطعة على حدة إلى فميهما. تتساءلان، وتتلمّسان ذراعيهما مثل فريق من الأحصنة. في الواقع، إذا مررتَ بهما في الشارع تراهما وهما تجذبان صناديقهما من السوق إلى المستودع. كانتا تترجّلان دائماً، وتضعان أيديهما على خصريهما. كانت السجائر بين شفاههما. كانا يترجّلان، كما لو كانتا تقومان بتأدية رقصة البولكا. لديهما وقت عصيب. ليس لديهما غير نفسيهما للعناية بهما. لديهما طفل، عليهما رعايته، إضافة إلى رعاية الزوج، الغجري الذي يحمل نظّارة ذات أُطُر ذهبية. لديه شابّ يُسرّح شعره إلى أسفل، لم أره يوماً دون كاميرا تتدلّى بين ذراعيه. يأخذ لهما صوراً كل يوم، يحدّد لهم موضعهم بدقّة، ويقف في المقابل لالتقاط الصورة، بينما كانت الغجريات تسرنَ إليه بابتساماتهنّ الصافية، لكنه لم يضع فيلماً، ولو مرّة في الكاميرا، والغجريات لم يرينَ ولو صورة لأنفسهنّ. فقط ظللنَ يأخذنَ الصور، وينتظرنَ مثلما ينتظر المسيحيون الجنّة.

صدفتُ في أحد الأيّام فتاتيّ الغجريّتَيْن في الجانب الآخر في فلتافا؛ حيث يتأرجح جسر الحبّ فوق هولشوفيتسه. عندما كنتُ أتمشّى، لمحتُ شرطياً غجرياً، يرتدي قفّازات بيضاء، ويحمل عصا مخطّطة موجّهاً إيّاها إلى العربات المارّة بالمنعطف، بالقرب من شارع شولر، كانت طريقته في الوقوف هي البولكا، من أجل تغيير وجهة السيارات، كان ذا وقار، إلى درجة أنني توقّفتُ؛ كي أشاهده وهو يُكمل نصف الساعة المتبقّية من دوامه ذلك اليوم، وفجأة لمع وميض فيروزي أزرق، وغرقت عيناي في بريق بنفسجي مخملي. ماذا رأيتُ عبر الشارع غير الغجريَّتَيْن اللّتَيْن انجذبتُ إليهما مثلما جذبتْني نظرة الغجري في زحمة المرور. الجميع يبتسم بفخر إلى القمم التي أنجبت الغجر. عندما انتهى دوامه، واجتاز الزحام من أجل

الوصول إلى وجهته، ذهب من أجل أن ينعم بمديح وتهاني رفاقه الغجريين، وفي لحظة رأيتُ وميض الفيروز وبريق الشرائط اللامعة، وهي تنساب على حذائه المغبرّ. في البداية، ابتسم الغجري، ولكنْ؛ سرعان ما غمرتْه الفرحة بنفسه، وشرع في الضحك، وقبّل كل الفتيات الغجريات من حوله محتفلاً، بينما كان الفيروز الأزرق والبنفسج المخملي يلمعان على حذائه.

عندما أنهيتا الخبز والسلامي، أخذتا الفتاتَ من تنّورتيهما، وقامتا بأكله، بعد ذلك، قامت الغجرية الفيروزية بالتمدّد على ورقة، وقامت بعقد تنّورتها على خصرها. كيف تجيد تلك اللعبة، سيدي؟! قالت بحزم.

أريتُها كفّي وهي ملطّخة بالدماء

ليس اليوم، لديك ركبة رديئة. قلتُ

لم تبال، وقامت بإرجاع تنّورتها، حدّقتْ فيّ كامل الوقت بعين لا ترفّ، عندما بدأت الغجرية ذات الوميض المخملي بالقيام من مقعدها في آخر خطوة. وقفتا بانتعاش وقوّة، قامتا بشدّ أشرعة المركب، وفجأة بعد مرورهما، قامتا بوضع رأسيهما بين فخذيهما مثلما تُطوى الأوراق، صارختان وداعاً، مسرعتان في اتّجاه الفناء. وسرعان ما بدأتُ بسماع خطواتهما تركض في ممشى بوّابة البولكا التي لا مثيل لها، تدفعان أكوام الورق المرمية تحت أوامر المصوّر الفوتوغرافي الذي سرّح شعره بأناقة شديدة، والذي يرتدي نظّارة بأُطُر ذهبية.

عدتُ إلى عملي، وشرعتُ في نقل الصناديق الملطّخة بالدماء، وعلب الكرتون وأوراق اللف حتّى ملأت المكان إلى السقف، عندما فرغ ثقب السقف، استطعتُ أن أُنصت إلى جميع الأشياء في الساحة، كل شيء يقال هناك، كما لو كان يقال عبر مكبّر الصوت. أحد الرّجال جاء نحوي

عبر الفتحة، نظرتُ إليه من الأسفل، وإذا به ينظر إليّ كمَن ينظر إلى تمثال في بوّابة الكنيسة. أما آلتي؛ فقد كانت تنظر نحوهم، كما لو كانت تنظر إلى تابوت تشارلز الرابع مؤسّس بلدنا. فجأة أخذ مكانهم مديري، يعصر كفّيه، ويهدر في وجهي بصوت مليء بالحقد:

. هانتا، ماذا يقول هؤلاء العرّافون، هؤلاء الدّجالون؟ ماذا يفعلون هنا مرّة أخرى؟

كان يرتعد كالعادة، جثمتُ على ركبة واحدة متمسّكاً بالبرميل بيد واحدة، أنظر نحوه، أتساءل ماذا حلّ به؟ ماذا يحمل ضدّي؟ ما الذي صاغ وجهه المرعب، وجه الساخط، المليء بالمعاناة، ويجعلني دائما أؤمن أنني شخص بغيض وعامل يائس، يوجّه مصائبه الدنيئة نحو رئيسه الرفيع؟

حملتُ نفسي من القاع مثلما فعل الجنود في لحظات رعبهم عندما اندفعت الصخرة التي تغطّي قبر المسيح الممدّد إلى الخارج في الهواء؛ لتُحرّره. استجمعتُ قواي، نفضتُ الغبار عن ركبتي، وعدتُ إلى العمل. في ذلك الوقت، كان الذباب بكامل قوّته في الخارج، ربمّا لأنني أحدثتُ ضجّة عبر مسح الثقب الذي في السقف بقطعة قماش، وعلى كل حال، قاموا بتكوين شجرة سميكة حولي وحول كفّي، شجرة فراولة، أوراق من العليق...كانت مهمّة تفريقهم مثل عملية صياغة شارع عبر الأسلاك الشائكة. لكنْ؛ أن تُلطّخ بالدماء وبالعَرَق لم يكن حاجزاً أمامي؛ لأُكمل عملي.

عندما كانت الغجريات معي، كان المسيح ولاوتزه يقفان معاً في برميل آلتي الهيدروليكية. الآن، عدتُ إلى وحدتي من جديد، بجراح صاغها الضباب والأسلاك الحديدية، لكنني عدتُ إلى أدواتي لمواصلة عملي الروتيني، رأيتُ المسيح كبطل تنس، فاز للتوّ ببطولة ويمبلدون لأوّل مرّة،

ولاوتزه كتاجر معوز. رأيتُ المسيح مستبشراً بحقيقة جسده. باللون الأحمر، وبالرموز، وبلاوتزه في نعشه. يشير إلى لوحة خشبية جاثمة. رأيتُ المسيح يرفع ذراعه الجبّارة؛ كي يدمّر أعداءه ولاوتزه يحرّك ذراعيه مثل أجنحة مكسورة. رأيتُ المسيح عاشقاً، ولاوتزه كلاسيكياً. المسيح هو التّدفّق، ولاوتزه هو الجَزْر. المسيح هو الربيع، ولاوتزه هو الخريف. المسيح يجسّد حبّ الجارّ، ولاوتزه قمّة الفراغ. المسيح هو التقدّم نحو المستقبل، ولاوتزه هو العودة إلى البدايات.

على كل حال، شرعتُ في ضغط الزّرّ الأخضر والزّرّ الأحمر، إلى أن رميتُ في النهاية حفنة من الأوراق الملطّخة بالدماء في البرميل، لاعناً الجزّار على حشر مستودعي بهذه المادّة، وشاكراً إيّاه على جَلْب المسيح ولاوتزه معه. في آخر كومة، وضعتُ ميتافيزيقيا الأخلاق لكانط، بينما كان الذباب هائجاً، مهاجماً آخر القطع المتبقّية من الأوراق الجافّة بمثل تلك الشراهة، إلى درجة أنه لم ينتبه إلى البرميل وهو يبتلعه مع بقية الأوراق المتساقطة في داخله؛ حيث كانت تسحقه، وتُفرّقه إلى غشاء وخلايا. قمتُ بزيادة سرعة النرد بالأسلاك، وأدرتُه. محاطاً بالذباب الميّت، والمصاب بالجنون. الذباب الأخضر أو الأزرق الفلزي يلمع فوق بقعة دم سوداء. كل كومة أشبه بقطعة لحم كبيرة، تتدلّى من خطّاف مستودع قروي لبيع اللحوم في ظهيرة شديدة الحرارة. نظرتُ إلى الأعلى، واكتشفتُ أن المسيح ولاوتزه قد رحلا من المدرج الأبيض مثل تنّورة الغجريات ذات الوميض القرمزي، نظرتُ إلى الأسفل، واكتشفت أن القنّينة فارغة. تعثّرتُ بدرجات المدرج ثلاث مرّات. رأسي تدور بسرعة في عزلة صاخبة جداً. لم أستطع أن أتنفّس هواء نقياً حتّى وصلتُ إلى الزقاق الخلفي؛ لأستجمع قواي، وأمسك بالإبريق، بإحكام. كان الهواء يندفع، والشمس تشعّ بملوحة، وتغمي عينيّ. عندما كنتُ أمشي على طول جدار رعية الثالوث المقدّس، رأيتُ التنانير

ذات اللون المخملي والقرمزي مرّة أخرى، كنّ يجلسنَ على لوحة، يدخّنَّ، ويتغامزنَ مع مجموعة من العمّال الغجر الذين كانوا يحفرون الشارع. كثير من الغجر يعملون في تهيئة الشوارع، هذا العمل مصدر رزقهم، لذلك تراهم يصبّون جام جهدهم وروحهم في هذا العمل، فأهدافهم في هذه الحياة هي ما تجعلهم منكبّين على العمل. أحبّ دائماً مشاهدتهم عُراة إلى الخصر، وهم منشغلون برفع المعاول، من أجل طرق الأرض الصلبة والحصى، كما لو كانوا يحفرون قبورهم.

أحبّهم؛ لأنهم يتركون زوجاتهم وأطفالهم بالقرب من مكان الأشغال، وفي وسع كل مَن يشعر بالحنين إلى ابنه أن يراه، فتشدّ الغجرية تنّورتها، وتحمل عنه الفأس، وتتركه يداعب الطّفل على ركبتيه. الغريب في الأمر أنه يداعب الطّفل، كما لو كان يسعى إلى تجديد قوّته. قوّة روحه بقوّة عضلاته. الغجر أناس عاطفيون جداً، مثل مريم تشيكية جميلة تداعب المسيح الرضيع. لديهم عيون إنسانية كبيرة تُشعرك بالطمأنينة، وتعكس الحكمة والثقافة المَنسية التي مضى عليها كثير من الوقت. عندما كنّا نركض والعصي بأيدينا، ونخفي عوراتنا، كان للغجر دولتهم ونظامهم الاجتماعي الذي شهد انحدارَيْن. غجر اليوم، الذين عاشوا في براغ لجيلَيْن، يُشعلون النار المقدّسة أينما اشتغلوا، نار النورمانديّين تستعر فقط من أجل الفرحة، بريق الخشب الخام المتآكل مثل ضحكة طفل، رمز الأبدية التي سبقت الفكر الإنساني، النار الحُرّة، هديّة الجنّة، العلامة الحيّة لتلك العناصر اللامرئية من قِبَل المشاة الذي يعانون من ضجرهم من العالم، النّار التي تستعر من براغ تُدفئ أعين المشرّدين وأرواحهم.

العين، والروح والأيادي. عندما يحلّ البردُ. أفكّر في دخول حانة هسينسكي، ومشاهدة النادلة تسكب لترَيْن من النبيذ في إبريقي، وتقوم

بسَكْب البقية على الطاولة؛ لأن الرغوة تتسرّب من الحافّة. ولكنها مضت بسرعة؛ لأنني عندما دفعتُ في اليوم السابق، اندفع فأر من أكمامي، أو ربّما لأن يدي ملطّخة ببقع الدم، قمتُ بالتربيت على وجهي بيدي، عندي عادة التربيت على وجهي بيد مفتوحة، لطّختُ جبهتي بالذباب المسحوق، ربّما لأنني صفعتُ نفسي من أجل الدفاع عن نفسي. على كل حال، أكملتُ طريقي في الزقاق أحفر في الذهن، رأيتُ التنانير المخملية والبنفسجية وهي تلمع على الحائط أمام الثالوث المقدّس، أشاهد الغجريات وهنّ يحملنَ آلة تصوير تلتقط ذقونهنّ. عدتُ إلى الوراء أنظر من عدسة الكاميرا، عليك أن تفعل ما بوسعك من أجل رسم ابتسامة جميلة على وجوه أشبه بمطبوعات تنفجر؛ لتتحوّل إلى ابتسامات، وفي النّهاية، ضغط على العدسة، وارتفعت كفّه اليسرى كموجة، نقر على المصراع، وجذب الفيلم. رأيتُ الفتيات الغجريات يُصفّقنَ مثل الأطفال، وهنّ يتساءلنَ حول كيفية خَلْق صورة.

سحبتُ قبّعتي؛ لتُغطّي عينيّ، واجتزتُ الشارع؛ حيث يقف أستاذ الفلسفة ضائعاً، نظّارته مغبرّة، يقف موجّهاً إيّاها نحوي، كما لو كانا بندقية بماسورتين. كالعادة قام بتحريك كفّه في جيبه، ثمّ أخرج ورقة نقدية بفئة ١٠ كرونات، وقدّمها إلي قائلاً:

- هل الرجل الصغير هنا؟

وعندما قلتُ إنه هنا، همس في أذني كالعادة:

- كن طيّباً معه، هل تسمع؟

وعندما قلتُ له سأفعل ذلك، انزلق إلى الفناءِ عبر مدخل شارع بالينا، هرعتُ إلى الخلف، وصرتُ أسفل الدرج عندما سمعتُه يمشي بتردّد وهو

يسلك طريقه إلى الفناء، وينزل الدرج دون ضجيج، وعندما التقتْ أعيننا. تنهّد، وسألني:

. أين هو الرّجل العجوز؟

وكالعادة قلتُ:

. هو في مكان ما، يشرب البيرة

قال الأستاذ

. هل ما يزال يعاملك مثل حيوان؟

قلتُ كالعادة

. إنه غيور، غيور لأنني أصغره سِنّاً.

قدّم لي أستاذ الفلسفة مرّة أخرى ورقة نقدية من فئة ١٠كرونات، ضغط عليها في كفّي، وبصوت مرتعش قال:

. هذه لكَ؛ كي أساعدك على البحث. هل وجدتَ شيئا ما؟

عدتُ إلى الصندوق، وجذبتُ بعض الصحف مثل «السياسة الوطنية» و«الأخبار الوطنية»، وكالعادة كانت فيها ملاحق حول المسرح، مقالات كتبها موريسلاف ريت وكارل إنجليمولر، قدّمتُ مُجملها إلى الأستاذ، تعوّد أن يشتغل في صحيفة «أخبار المسرح» حتّى وإن كان قد طُردَ من هيئة التحرير لأسباب سياسية، ما يزال لديه حنين إلى الملحق المسرحي منذ الثلاثينيات. نظر إليهم نظرة ثاقبة، ووضعهم بانتظام في حقيبته، وقال وداعاً، وعند هذه اللحظة، كالعادة، قدّم لي ورقة نقدية بفئة عشرة كرونات. ثمّ تابع سيره على الدرج، والتفت لي قائلاً:

ـ استمرّ في العمل، استمرّ في البحث. أنا لا أريد فقط أن أصدف الرّجل العجوز.

ثمّ أسرع في اتّجاه الباحة. وفي ذات اللحظة، كالعادة رميتُ قبّعتي خلفي، هرعتُ إلى الزقاق عبر الفناء، ووقفت أمام القدّيس تدوس، سقطتْ قبّعتي على حاجبي، وخيّمت على وجهي نظرة متجهّمة. رأيتُ أستاذ الفلسفة وهو يتسلّل بجانب الجدار ، رأيتُه مذعوراً، وكالعادة، قدّم لي ورقة نقدية من فئة عشرة كرونات، وقال:

ـ لا تكن متعصّباً مع الرّجل العجوز، ما الذي تحمله ضدّه؟ ستكون مديناً له، ألا ترغب بذلك؟

عندها، كالعادة، أومأتُ، بينما كان يغادر، لم يكن ذاهباً إلى ساحة تشارلز، كانت حقيبته تتدلّى خلفه، بينما كان ينعطف مع أوّل زاوية، كنتُ أعلم بما لا يدعو إلى الشكّ أنه في عجلة من أمره، من أجل تجاوز الرجل العجوز الذي يعامل مساعده الصغير كمَن يعامل قذارة ما.

رأيتُ الشاحنة ترجع في اتّجاه الباحة، لذلكِ عدتُ مباشرة إلى المستودع، ووقفتُ بجانب خمس عشرة كومة، جمعتُها اليوم، جميعها مزيّنة بنسخ من أعمال بول غوغان مرقّطة بالدّم، كانت لوحة بونجور سيد غوغان. كلها لامعة ومشرقة، كنتُ متأسّفاً لقدوم السائق باكراً. أمضيتُ كثيراً من الوقت مع اللوحات، كانت لها طبقات، كما لو كانت درجات سلّم، مشكلة خلفية مربكة مع الذباب النائم. لكنْ؛ كان هناك وجه السائق مائلاً على المصعد، لذلك حملتُ الكومة تلو الأخرى على الحاملة، أغذّي عينيّ بلوحة بونجور غوغان، حزيناً لرؤيتها وهي ترحل. ذلك لا يعني شيئاً، قلتُ لنفسي؛ لأنني عندما أتقاعدُ سأشتري آلتي. سأصوغ كل الأكوام التي

أرغب في ضغطها، حتى لو اشترى أحد ما أحد الأكوام الممضاة، حتّى وإن كان أجنبياً، ولكنْ؛ لحظي، سأضع لها ألف مارك ألماني؛ لأُبعدها عن الأعين الأجنبية الذين سيدفعون كثيراً، ثمّ يحملونها بعيداً، إلى درجة أنه لن يكون في وسعي زيارتها. وعموماً، الكومة تلو الكومة كانت تُسحب من الفناء، سمعتُ العامل وهو يلعن الذباب المحلّق على وجهه، وبالتّأكيد، عندما تلاشت آخر كومة، تلاشى الذباب معها. ولكنْ؛ من دون الذباب، سكن الحزن فجأة المستودع، وغمّ عليه اليأس. زحفتُ على الدّرج، شربتُ كأسي الثالثة، عليّ أن أتفاوض مع درجات السلالم، وأرى العامل وهو يضع آخر كومة في يدَي السائق الذي يرتدي قفّازات...عليّ أن أراه وهو يرفعها إلى الشاحنة راكلاً إيّاها، عليّ أن أرى ظهر العامل وهو ملطّخ بدماء الباتيك، أن أرى السائق وهو يمزّق قفّازاته الدامية، ويرميها باشمئزاز، العامل يصعد بجانب السائق، وتختفي الأكوام من الباحة. كنتُ سعيداً بما تبقّى من أعمال غوغان، وهي تمضي في شكل شرائح، آملاً أن كل مَن سيرى الشاحنة وهي تمرّ سيُسعدُ لمشاهدته. عندما غادرت الشاحنة، كانت الحشرات على قيد الحياة، تجوب شارع سبالينا متشمّسة، الذباب الأزرق والأخضر، الذباب الذهبي الذي كان مسجوناً مع عمل غوغان، في عربات كبيرة، مغمورة بالأحماض والفلز القلوي في رحى الأوراق؛ لأن ذلك الذباب البرّيّ يرفض الاستسلام، من أجل إبطال أن جمالية الحياة تتمثّل في عظمة القاذورات، الممزوجة بالدم.

كنتُ على وشك العودة إلى القبو عندما جثم سيدي على ركبتيه أمامي بنظرة أشبه بنظرة شهيد، وشبك يديه قائلاً لي:

ـ أرجوك، هانتا، من أجل الرّبّ، ارحمْ مشاعرك عندما يكون هناك وقت، وتوقّف عن سكب تلك الأباريق في حلقك. قمْ بعملك، وتوقّفْ عن تعذيبنا. ستكون أنت نهايتي، إذا واصلتَ على هذا المنوال.

كان يرتعش بينما كنتُ أنحني عليه وقمتُ بالتربيت عليه عبر مرفقي بلطف قائلاً:

ـ خذْ نَفَساً، سيّدي الجميل، ليس من الجيد أن تركع.

وعندما ساعدتُه، شعرتُ بضجّة في كامل جسدي، سألتُه أن يصفح عنّي دون أن أعلم السبب في ذلك، لكنْ؛ كان ذلك قدري، أن أطلب المغفرة، سبق وطلبتُ المغفرة من نفسي من حالتي التي كُنتُها، حياتي التي كانت عبارة عن يأس، مرهقة بالوحشة، سلكتُ طريقي إلى المستودع، واستلقيتُ على ظهري في فراغ، لم يزل يتدفّأ عبر الفتيات الغجريات اللواتي كنّ يرتدينَ تنانير فيروزية. انحنيتُ مُنصتاً إلى ضجيج الشارع، الموسيقى المنبعثة من خرسانة الشارع الجميلة، تساقط قطرات الماء الملوّثة تجري عبر خمس قصص بُنيت فوقنا، إلى شبكة المرحاض تندفع، تُنصتُ إلى ما يجري في الأسفل، بوضوح تندفع المياه الملوّثة والبراز عبر المجاري، بعيداً عن السطح، الآن هُزمَتْ جحافل الذباب، وأُجبرت على التراجع، الآن ثمّة صرير أشبه بنواح وعزاء لجيشين من الفئران يتقاتلان عبر مجاري العاصمة، يتقاتلان من أجل العلوية على مجاري براغ. لا الجنّة إنسانية، ولا الحياة التي فوقنا، ولا حتّى التي تحتنا إنسانية...لا إنسانية في داخلي. بونجور، غوغان.

الفصل الخامس

كل ما أراه في هذا العالم، يندفع إلى الأمام، ويتراجع في آن، كمنفاخ الحدّاد تماماً، مثل الأشياء التي مرّت بآلتي، تعود إلى نقطة البدء عبر الزّرّ الأحمر والأخضر، وهذا ما يجعل العالم يدور. أجمع الأوراق المبعثرة منذ ٢٥ عاماً، العمل الذي يُكسبكَ تعليماً كلاسيكياً، وفي أفضل الحالات مستوى جامعياً، وكذلك شهادة إلهية؛ لأن في وظيفتي الشدّ والتدوير يأتيان معاً مثلما يأتي التقدّم مع المستقبل؛ ليلتقيا مع الماضي والأصل. أجرّب ذلك لأوّل مرّة. الحزن يغمر سعادتي بدروسي التي يعود الفضل فيها إلى الصدفة، أتأمّل التقدّم والمستقبل وهما يلتقيان مع الماضي والأصل، من أجل الراحة، بالطريقة نفسها التي يقرأ بها سكّان براغ أخبار المساء.

بالأمس دفنّا عمّي. كان الشاعر الذي علّمني كيف أنصب برج إشارة في حديقته، وأضع المسارات حول الأشجار، من أجل قاطرة أورنشتاين كوبر التي أعادها مع أصدقائه للعمل أيام السبت والأحد، من أجل تقديم فرصة ركوب السيارات المفخّمة، ثمّ يذهبان بمفردهما؛ ليحتسيا البيرة في الأباريق. بالأمس دفنّا عمّي، الذي أصابته جلطة دماغية في العمل، في برج الإشارة. كان ذلك في ذروة الصيف، وأصدقاؤه جميعهم في الغابة وعلى الأنهار. نام في برج الإشارة لمدّة أسبوعَيْن في الحرارة الشديدة قبل أن يجده أحد المهندسين مغطّى بالذباب والدّيدان، جسده يذوب فوق المشمّع كقطعة جبن عفنة. حفّار القبور أخذ ما وجده في ملابسه، ثمّ أتى؛ ليخبرني

بما حدث، ثمّ ذهبتُ من أجل أخذ المسحاة والمجرفة؛ كي أجمع فتاته من فوق السطح، مُحصّناً بزجاجة من النبيذ، قدّمها لي الحفّار. كنتُ متضرّعاً وأنا أجمع بقاياه بلطف. شعره الأحمر كان أثقل شيء فوق المشمّع، كان مثل أشواك قنفد مسحوق بشاحنة. كان عليّ أن أستعمل إزميلاً لجمعه. عندما انتهيتُ، قمتُ برمي ما تبقّى منه في ملابسه التي رُميَت في تابوته، لففتُ رأسه في قبّعة، وجدتها تتدلّى في برج الإشارة. وضعتُ مجلّداً لإيمانويل كانط في يده، فتحتُه على صفحة، تحمل نصّاً رائعاً، لم يخفق يوماً في دفعي" أمران يملآن نفسي بتساؤل متجدّد: السّماء المرصّعة بالنجوم من فوقي، و القانون الأخلاقي داخلي» ولكنّي غيّرتُ رأيي، قلبتُ الصفحة إلى كانط الصغير، ووجدتُ مقطعا آخر أشدّ روعة: " عندما تمتلئ ليالي الصيف المرتجفة بوهجها، وتمتلئ بوميض نجومها، ويكتمل بدرها، أغرق تدريجياً في مدينة الحساسية العالية التي أساسها الصداقة، وأزدري العالم والأبدية". فتحتُ خزانته، ووجدتُ بعض الخردة التي تعوّد أن يُريني إياها الوقت كله، ليس ذلك ما يهمّني، تركيبة من المعادن من جميع الألوان الممكنة، صناديق مليئة، بقايا من النحاس والقصدير والحديد والعديد من المعادن الملوّنة. كان يسعى دائماً لوَضْعها على السكّة، بينما كان يؤدّي واجبه. كل مساء، عندما يعبر القطار، يأخذها، ويُنظّمها حسب الشفرات الأكثر وحشة التي صاروا إليها، يعطي كل قطعة اسماً مقترناً بشكلها، ولكل صندوق رسم خاصّ. مثل الذباب الآسيوي أو شوكولا النوغة الملفوفة في غلاف معدني. كنتُ أُغرق تلك المعادن الثمينة في نعشه، أحمل الصندوق تلو الآخر. سمحتُ للقبّار بأن يضع عليه الغطاء. هناك ينام عمّي، مغطّى بالمعادن، بالأوسمة، بالتراتيب، مزيّناً مثل كبار الشخصيات، مثل الكومة البرونزية التي صغتُها، وضغطتُها.

لاحقاً، عدتُ إلى مستودعي، أزحف إلى أسفل الدرج بالعكس، كما لو

كنتُ أتسلّق السلّم من العليّة، وبعد أن أنهيتُ زجاجة النبيذ، وأخرى من البيرة. حفرتُ طريقي في اتّجاه مجموعة من الورق اللاصق القذر، المليء بالجبن الذي صنعه الفئران. ثمّ شربتُ زجاجة بيرة أخرى، ورميتُها في البرميل، امتلأت الممرّات بالفئران، جميع الأعشاش مليئة بالفئران؛ لأننا أغلقنا طيلة يومين من أجل تنظيف المستودع، من أجل الجرد. أغسل أكوام الكُتُب كل مساء، ولم أكن أعلم ما الذي يحدث أسفلها، أسفل الكُتُب والزهور والأوراق المتلاحمة في جبل من الأوراق والفضلات المتبقّية في القمة، أضغطها بقناعة مثل آلتي الهيدروليكية.

كما قلتُ، هو عملُ علماء اللاهوت؛ لأنه في القاعدة، أسفلَ الكومة، الاكتشاف الذي اكتشفتُه منذ ستة أشهر منذ آخر اكتشاف، الأوراق المَرمية لُوِّثتْ، وأضحت أشبه بمستنقع، ترمي رائحة الجبن المتعفّنة لأشهر في حجرة المؤن، تبحث عن غبي، كتلة من البيج الرمادي مع الشاي المغمّس في الخبز القديم.

عملتُ بكدّ في الليل، توقّفتُ قليلاً، فقط لأذهب في رحلة قصيرة عبر الهواء، عندما رأيتُ خمس قصص مثل كانط الصغير في الليلة المقمرة. زحفتُ إلى الخلف على أربع، القنّينة في فمي؛ كي أعود على ثلاث، القنّينة في يدي، أعود إلى الخلف، كما لو كنتُ أتسلّق السلّم إلى الأسفل.

هناك، على الطاولة تحت المصباح الكهربائي، نسختي من كتاب فكرة السّماوات لإيمانويل كانط تنتظر، جلستُ أنتظر في الدرج، الكومة جلستْ معي في انتباه شديد. وذلك لأن اليوم كنتُ قد شرعتُ في جمع المئات من اللوحات الكبيرة، نسخ مغبرّة بمفعول الرطوبة من لوحة عبّاد الشمس لفان جوخ، كل كومة من جانبي تشعّ ببريق ذهبي وبرتقالي مُشكّلة حقلاً من اللون الأزرق، تشعّ منها رائحة الفئران المتراصّة في أعشاشها، ويُحتمل

أنها تشكّلت في شكل صفحة مسطّحة. وفي الوقت ذاته، ظلّ الوقت في عملية مَدّ وجَزْر، متناسقاً مع ضغطي على الزّرّ الأخضر أو الأحمر، تعلّمتُ من كتاب فكرة السماوات معنى الصمت، والصمت المطلق في الليل، وعندما تقع الحواسّ في خمول، قرأتُ عن تلك الروح الخالدة التي تتكلّم بلسان مجهول عن الأشياء التي يمكن اغتنامها دون أن نتمكّن من وصفها. صُدمتُ من هذه الأسطر، كما لو كنتُ أركض في الهواء، وأُحدّق في طريقي الذي يحملني تجاه السماء المرصّعة بالنجوم، عدتُ بعد ذلك؛ كي أفكّ الأوراق من الأسر، ورغم أن أيّ شخص في وسعه جمع المواثيق المهملة من أجل لقمة العيش، إلا أن ذلك العمل لا إنسانية فيه، وحصلتُ على شخص ما للقيام بذلك العمل. قتل الأطفال حديثي الولادة كما هو مبيّن من بيتر بروغل كان هو الكتاب الذي اختتمتُ به كل ما عندي من كُتُب في كومة الأسبوع الماضي. أما بالنسبة إلى جدليات فان جوخ والثور ذي العيون الصفراء والذهبية؛ قد كثّفت مزاجي المأساوي، ولكنْ؛ حتّى مع ذلك، ظللتُ أعمل وأصوغ مقابر للفئران، ثمّ أهرع مباشرة من أجل قراءة كتاب فكرة الجنّة، كان لذيذاً وطيّب المذاق. كل جملة كانت أشبه بانخفاض إلى درجة سعال وامتلاء بشعور من الضخامة، والعظمة، شعور لانهائي.. يتدفّق الجمال في وجهي من كل جانب تحت سماء مرصعّة بالنجوم المطلّة عبر الفتحة التي في السقف من الفوق، تحت حرب ضروس بين جيشين من الفئران، يخوضان حرباً في براغ داخل المجاري. وفي الوقت نفسه، وضعتُ عشرين كومة على الجدار، قافلة السيّارات في طريقها إلى المصعد، من أجل العمل، كل كومة مضاءة بعبّاد الشّمس، وما يزال هناك برميل بأكمله من الفئران المهروسة التي لم تسمح لها الفرصة أن تصرخ، مثل فئران اشتعلت من أجل متعة توم القطّ، تماماً مثل جيري الذي أمسك به توم القطّ من أجل المتعة فحسب. الطبيعة الرحيمة أتت

بعد تدمير كل الشعور بالأمن، الرعب أكثر كثافة من الألم، يزورهم دائماً في لحظة الحقيقة. لم يتوقّف يوماً عن إدهاشي، لكنْ؛ فجأة شعرتُ بجمال أن تحمل قوّة بقداستها؛ كي تظلّ مستقيماً بعد كل الذي رأيتَه وعشتَه عبر الروح والجسد، في عزلة صاخبة جداً، وتدريجياً وصلتُ إلى اكتشاف أن عملي اندفاع ومُضيّ في حقل لا متناه من السلطة المطلقة.

ظلّت المصابيح تشعّ بنورها عليّ، ضوء الأزرار الحمراء والخضراء ظلّ يحرّك الحائك في عملية مَدّ وجَزْر، وفي النهاية، وصلتُ إلى أسفل الكومة، مستعملاً قَدَمَيّ، مثل بنّاء يجرف الأوساخ، يضغط على الوحل، أشبه بطبقة من الجير.

قمتُ بجمع الأخيرة، كانت مَرمية بوحشية في البرميل. تخيّلتُ نفسي عامل مجارٍ ينظّف قاع قناة صرف مَنسية على أطراف المدينة. فتحتُ كتاب فكرة السماوات، ووضعتُها في آخر كومة، وعندما قمتُ برمي الكومة مع الأسلاك، جاذباً إيّاها بالساندة، مديراً إيّاها المرّة تلو الأخرى. وقفتُ خطوة، وتركتُ ذراعيّ مُعلّقين بين ساقيّ إلى الأرضية الإسمنتية الباردة. إحدى وعشرون زهرة عبّاد شمس تنير ظلمة المستودع، بعض الفئران ترتعش في بحث متواصل عن الورق، قدم فأر ما، وهجم عليّ، قفز على ساقه الخلفية، وحاول عضّي وإيلامي، مجهداً جسده الرقيق، يقفز على ساقي عاضّاً كاعب ساقي، وكل مرّة أقوم بإبعاده بلطف، حاول أن يقذف نفسه في حذائي، في النهاية فقد من أنفاسه، ووقف في زاوية محدّقاً فيّ، مدقّقاً في عينيّ، وفي مرّة واحدة، بدأتُ بالارتعاش؛ لأنني في عين ذلك الفأر رأيتُ شيئاً آخر أعمق من الليالي المرصعّة بالنجوم أو القانون الأخلاقي في داخلي. مثل إشارة البرق لشوبنهاور " الحبُّ هو القانون الأعلى، الحبّ هو الشفقة" واكتشفت أن آرثر شوبنهاور يكره الرجل القويّ،

وسعدتُ أن هيغل وشوبنهاور لم يكونا جيشين متناحرين؛ لأنهما سيشنّان الحرب نفسها التي شنّتها الفئران في مجاري براغ.

كنتُ شديد الحذر عندما وصلتُ إلى البيت، واستلقيتُ بجميع ملابسي فوق الفراش، ممدّداً بالعرض تحت غطاء من الرفوف ما يقابل طنّين من الكُتُب، وعندما كان كل شيء على ما يرام. نظرتُ عبر الضوء القادم من الشارع وعبر الشقوق في الرفوف، وعندما خمد كل شيء في هدوء، بدأتُ في سماع أسنان الفئران، وهي تقضم شيئاً ما، سمعتُها وهي تقضم كُتُباً في جنّتي. أرعبَني صوت قَضْمها؛ لأنها كانت مرتبطة بالزمن قبل صياغتها لأعشاشها، وفي أشهر قليلة بعد أن صنع الفئران الأعشاش، وجدتْ مستوطنة، وبعد ذلك كوّنتْ قرى، في تقدّم هندسي، كبر معها في سنة؛ لتؤسّس مدينة، مدينة الفئران في وسعها أن تقضم وتحفر عبر اللوح وفي الأشعة بكل مهارة قبل ذلك بكثير - نعم الزمن لم يكن بعيداً - لم يكن غير صوت مرتفع للمسة عابرة لطنّين من الكُتُب؛ كي تأتي برأسي، وتنتقم منّي شر انتقام لتلك الأكوام التي سحقتُ فيها فأرَيْن في داخلها. وعموماً، هناك أنامُ، نصف نائم، مسكوناً بالقضم الذي يسري فوقي، وكالمعتاد، عندما نمتُ، انضمتْ إليّ فتاة غجرية، هادئة، فتاة صادقة، كانت حبيبتي التي عشقتُها في شبابي واعتادت أن تنتظرني برِجْل متقدّمة مثل راقصة باليه ترقص في مركز واحد، فتاة جميلة، هي الجمال المَنسي منذ زمن، أيّام شبابي.

كان جسدها مغطّى بالعَرَق وبرائحة كريم الشعر التي تغطّي أصابعي عندما أربتُ على شعرها، ترتدي دائماً الثوب المغطّى بالحساء وببقع صلصة اللحم في جبهتي، بقع من الكلس والسّوس في الظهر، بسبب جَرّي اللوح الفاسد التي وجدتُه في الأنقاض في ظهري. قابلتُها عندما بدأت

رحى الحرب في التوقّف عندما كنتُ في طريقي إلى منزلي من منزل هوركي حيث أخذت القليل من البيرة. حضنتْني، لذلك عدتُ إليها، وتحدَّثتُ معها، بينما كانت بين ذراعيّ، لكنها لم تحاول تجاوزي. مشتْ خلفي، وعندما التقت عيناي عينيها، قلتُ " حسناً، وداعاً، عليّ أن أذهب" لكنها قالت إنها تسير في الاتجاه نفسه، وعندما بلغتُ نهاية شارع لودميلا قلتُ " حسناً، وداعاً، عليّ أن أذهب إلى المنزل" وكانت تسير في الاتجاه نفسه، فأكملنا الطريق معاً، أكملتُ طريقي عمداً كنوع من التضحية جاعلاً يديّ في يديها، وقلتُ " عليّ أن أذهب إلى المنزل الآن". قالت بأنها تسير في الاتجاه نفسه، فأكملنا السير، أكملتُ السير في وجهتها مضحّياً بكل شيء؛ كي أجعل يديّ في يديها. قلتُ يجب أن أُكمل طريقي، من أجل الوصول إلى البيت الآن. وكانت تسير في الاتجاه نفسه، وأكملنا السير حتّى وصلنا إلى شارع لودميلا، قلتُ لها إنني وصلتُ، وعليّ أن أقول لها وداعاً، وعندما توقّفتُ عند عمود إنارة في عتبة البيت أمام الباب، قلتُ بأنني أقطن هنا. قالت بأنها تعيش هناك أيضاً، أغلقتُ الباب، وأمرتُها بأن تسير أمامي، لكنها رفضتْ، وطلبتْ مني أن أسير أوّلاً. وبما أن الغرفة كانت مظلمة، نفّذت أوامرها. هبطتُ من الدرج وصولاً إلى الباحة، إلى أن وصلتُ إلى باب غرفتي. قلتُ:

- حسناً، وداعاً... هذه هي غرفتي.

قالتْ بأنها كانت غرفتها، حينها تقدّمتْ إليّ، وشاركتْني فراشي، وعندما استيقظتُ من الفراش، لم يزل دفؤها على الفراش، بينما غابتْ هي، لقد رحلتْ. لكنْ؛ في اليوم التالي، وطيلة الأيّام التي تلتْها، في لحظة وقوفي الباحة، أراها جالسة في عتبة الباب، وتستلقي بعض اللوحات البيضاء والأشعّة مَرئية تحت النافذة، وعندما أُغلق الباب ، تقفز مثل

قطّة، وتركض في اتجاه غرفتي دون أن ينبس أحدنا بكلمة. ذهبتُ لاحقاً؛ لأحضر بعض البيرة وزجاجة نبيذ بخمس لترات. كانت الغجرية تُشعل فرن الحديد القديم الذي يشتعل بقوّة حتّى وإن كان الباب مفتوحاً؛ لأنّ الغرفة كانت ذات يوم ورشة حدادة بسقف عال وموقد كبير، قامتْ لطهي عشاء من بطاطا الغولاش وسلامي الخيل، ثمّ جلستْ قرب الموقد؛ كي تغذّيها بالحطب، كانت شديدة الحرارة؛ إذ كان صدرها يلمع بأشعّة ذهبية، وعَرَق ذهبي يغطّي يديها ورقبتها، ويغيّر باستمرار من ملامحها، بينما كنتُ مستلقياً فوق الفراش فقط كي أخمد عطشي بقنّينة النبيذ قبل أن أحملها نحوها. أمسكتِ القنّينة بكلتا يديها، وشربت بطريقة جعلتْني أُنصتُ لصرير تحرُّك حنجرتها، سمعتُ تنهّداتها التي كانت أشبه بعملية ضخّ في المسافة. في البداية اعتقدتُ أنها وضعت الكثير من الخشب في النار؛ كي تنتصر عليّ، ولاحقاً اكتشفتُ أن النّار كانت في داخلها. النار كانت في داخلها. هي لا تستطيع العيش بلا نار.

بذلك واصلنا العيش معاً حتّى وإن لم أكن على علم باسمها، ولم تعلم اسمي، ولم ترغب في معرفته، ولا حتّى في طلبه. صرنا نلتقي كل ليلة. حتّى وإن كنتُ لا أقدّم لها المفاتيح أحياناً، تظلّ خارج البيت إلى منتصف الليل، ولكنْ؛ في اللحظة التي أُغلق فيها الباب، أرى ظلاّ ينزلق، ثمّ أراها هناك، تُشعل عود كبريت، تُضرم النار في بعض الأوراق، إلى أن تبدأ النار بالغمغمة والتوهّج في الموقد الذي ظلّت تداوم على توفير كمّيّة من الخشب، تصلح لشهر مسبقاً. كانت تضعه تحت النافذة. في آخر المساء، عندما تناولنا العشاء الصامت. أشعلتُ المصباح؛ كي أراها وهي تقسم الخبز، كما لو كانت في مأدبة إلهية، تجمع الفتات من ملابسها، وتضعهم بوقار في النار.

قمنا لاحقاً بإطفاء المصابيح، واستلقينا على الظهر ناظرين إلى السقف؛ حيث رأينا وميضاً من ظلّ وضوء، والرحلة إلى القنّينة فوق الطاولة كانت أشبه باجتياز مَسبح مليء بالطحالب والنباتات البَحْريّة الأخرى، أو أشبه بعملية مطاردة في غابة من الخشب السميك في ليلة مقمرة. وكلّما سكرتُ، كنتُ أعود دائماً، وأنظر إلى الغجرية العارية وهي مستلقية وهي تنظر إليّ. بياض عينيها يلمع في الظلمة، ننظر إلى بعضنا البعض في الظلمة أكثر ممّا ننظر إليها في النور. أنا أعشق الشفق دائماً، هي اللحظة الوحيدة التي أشعر فيها بأن شيئاً مهماً سيحدث. كل الأشياء كانت جميلة، وهي تستحم مع الشفق، كل الشوارع، كل الساحات، وكل الناس الذين يسيرون في اتجاه بعضهم البعض، حتّى وإن كنتُ أحمل شعوراً بأنني كنتُ شابّاً وسيماً، أعشق النظر إلى نفسي من المرآة، أنظر إلى نفسي في زجاج المتاجر عندما أسير حتّى وإن لامست وجهي، لا أشعر بتجاعيد في فمي أو جبهتي. نعم مع المغيب يأتي الجمال.

بالقرب من باب الموقد وقفت الغجرية عارية، وعندما مشتْ، رأيتُ جسدها يشعّ بهالة صفراء مثل الهالة التي تنبعث من أغناطيوس لويولا تشعّ على واجهة الكنيسة في ساحة تشارلي. عندما أضافت القليل من الخشب إلى النار، وعادتْ، واستلقتْ عليّ، مرّرتْ رأسها؛ كي ترى جسدي، وتُحرّك أصابعها على أنفي وفمي. لم تُقبّلني يوماً، ولم أحاول أنا تقبيلها حتّى. قلنا كل شيء بأكفّنا، واستلقينا هناك، ننظر إلى شرارة النيران، وإلى استعارها في موقد قديم. مُحدّقين في خصلاتٍ من الشعر تشعّ من خشب ميّت.

كلّما ما رغبنا فيه هو أن نستمرّ في العيش إلى الأبد. كنّا كما لو أننا قلنا كل شيء لأنفسنا. كما لو أننا وُلدنا معاً، ولن نفترق أبداً. طيلة الخريف

السابق من الحرب العالمية الأولى اشتريتُ بعض أوراق اللفّ زرقاء اللون، كرة من الخيوط والغراء، بينما ملأت الغجرية كأسي بالبيرة. أمضيتُ السبت كاملاً فوق السطح؛ كي أصنع طائرة ورقية، كنتُ أصمّمها بدقّة، تجعلها تطير بخفّة، أصوغ خيطاً طويلاً من الأوراق الرقيقة، وأُثبتها في طائرة على شكل حمامة، تمُسكها الغجرية، بينما أظلّ أراقبها. لاحقاً قمنا بإطلاق سراح الطائرة الورقية نحو الجنّة، وتركنا الحبل يُطلق أجنحته أيضاً بعض الوقت. جذبتُه مرّة أخرى، وقمتُ بجَرّه؛ كي يستوي في تحليقه، ووقفتُ ساكناً مُحدّقاً في السماء ناظراً إلى الحبل وهو يتماوج. كان المشهد مؤثّثاً بغجرية، تُسدل الستار على وجهها بعينيها. تغطّي وجهها بعينيها. عيناها واسعتان في ذهول. لاحقاً جلسنا، وقدّمتُ الطائرة إليها، لكنها بكتْ، كما لو كانت تريد أن تحملها إلى الجنّة. كانت ترغب في أن تشعر بأنها ترتفع مثل مريم العذراء. لذلك وضعتُ يديّ على كتفيها، وقلتُ بأنه بفضل هذه اللحظة نحن معاً. لكنها قدّمتْ لي كرة من الخيوط، وجلسنا هناك، رأسها بين كتفَي، وفجأة وقعتْ في داخلي فكرة أن أُرسل إليها رسالة. أخذتُ الطائرة الورقية إلى الغجرية، ولكنْ؛ مرّة أخرى تجمّدتْ في مكانها، وقالت بأنها ترغب في الطيران بعيداً معها، ولم ترني بعد ذلك مرّة أخرى. لذلك دفعت المقبض مع الخيوط إلى الأرض، مزّقتُ صفحة من مفكّرتي، وربطتُها بالحبل، وبما أن الخيوط قد رجعتْ إلى يديّ، شرعتُ في الصراخ، وتمدّ يدَيها بعد الرسالة، كما لو كانت ترتعش في طريقها إلى السماء. كلّ هبّة للريح تعبر عبر أصابعي إلى جسدي كاملاً. وحتّى وإن كنتُ أشعر أن الرسالة في تواصل مع قمّة الطائرة الورقية؛ لأن الطائرة الورقية فجأة تحوّلت إلى إله، وتحوّلتُ أنا إلى ابن الإله. وفجأة ارتجفتْ، وتحوّل الخيط إلى روح مقدّسة جعلت من الإنسان في تواصل، في حوار مع الإله. مرّة واحدة أطلقنا الطائرة الورقية أكثر من مرّة. جمعت الغجرية

من قواها، وأخذت الخيوط، ارتعدتْ، كما كنتُ أرتعد في الرياح العاصفة. وحرّكت الخيوط على أصابعها، وبكتْ في حرقة.

في مساء ما، عدتُ إلى المنزل؛ لأكتشف أنها رحلتْ. أضأتُ الأنوار، ومشيتُ جيئة وذهاباً في الشارع إلى الصباح، ولكنها لم تأت، لم يكن ذلك اليوم فحسب، بل الذي تلاه. لكنني بحثتُ عنها في أماكن أخرى. غجريّتي الطفولية، بسيطة كقطعة خشب خضراء، كأنفاس الروح المقدّسة. كلّ ما كانت ترغب فيه هو أن تُغذّي الموقد بقطع الخشب الكبيرة، باللوح السميك، جاءت به على ظهرها، كما لو كانت تحمل الصليب، حاملة بقاياه. كلّ ما كانت ترغب فيه هو أن تطهو بطاطا الغولاش مع سلامي الخيل، تُغذّي نارها بالخشب، وتطير طائرة الورق الخريفية.

قرأتُ أنها سقطتْ في قبضة الجستابو - البوليس النازي الألماني - مع مجموعة من الغجريات، وتمّ الزّجّ بهنّ في معسكر الاعتقال، حتّى وإن كنتُ قد أُحرقتُ حتّى الموت في ميدانك، أو اختنقتُ في غرفة أوشفيتز بالغاز، ففي كلا الحالتَيْن هي لم تأت. الجنّة ليست إنسانية، لكنني لم أزل موجوداً مع الزمن. انتظرتُها، وعندما أخفقتْ في العودة مع نهاية الحرب العالمية الأولى، أحرقتُ الطائرة الورقية.

في الخمسينيات، كان مستودعي مليئاً بالأدب النازي، ولم يكن هناك ما يثير متعتي غير سَحْق أطنان من كُتُب النازية ومخطوطاتها، مئات وآلاف الصفحات مع صور ورجال سعداء، أطفال ونساء، شيوخ سعداء، عمّال سعداء، فلاحين بسطاء، رجال بسطاء من القوّات الخاصة، جنود بسطاء.

تلقّيتُ ضربة قوية، بسبب امتلاء برميلي بهتلر. حاشيته تدخل دانزيغ المحرّرة، هتلر يدخل وارسو المحرّرة، هتلر يدخل براغ المحرّرة، هتلر يدخل

باريس المحرّرة، هتلر في منزله، هتلر في احتفالات النصر، هتلر مع كلبه الراعي، هتلر يزور جيوشه في الجبهة، هتلر يفتّش الجدار الأطلسي، هتلر في طريقه إلى مُدُن الشرق والغرب المحتلّة. هتلر يستلقي فوق خرائط العساكر. وكلّما سحقت رجالاً سعداء، نساء، أطفالاً، ازداد تفكيري بالغجرية التي لم تسعد يوماً. الغجرية التي لم ترغب في شيء غير إطعام النار، وطهي البطاطس، وملء قنّينتي بالبيرة، لا شيء غير تفتيت الخبز إلى رقاقات صغيرة، كما لو كانت في عشاء إلهي. وأن تنظر إلى فتحة الموقد، ذاهلة من حرارة النار وضجيجها، من موسيقى النارِ التي تعلّمتْها منذ طفولتها، والتي حفظت الروابط المقدّسة مع أناسها. تركتُ جميع آلامي خلفي، وانتزعتُ ابتسامة حزينة من وجهها كعلامة لسعادة مثالية.

الآن أنا أستلقي في فراشي على ظهري، وفأر صغير جداً يسقط على صدري، سقط إلى الأرضية، هرع بحثاً عن النجدة تحت السرير. ربّما قدّمتُ منزلاً إلى بعض الفئران في حقيبتي وجيب معطفي أيضاً. رائحة المُعطِّر في المرحاض تندفع من الباحة. نحن هنا من أجل القليل من الأمطار، قلتُ لنفسي، أنا دافئ، خارج العمل ودون بيرة، ولا أستطيع تحريك أصابعي. يومان وأنا أنظّف المستودع، أدفع الثمن لبعض المخلوقات التي لا ترغب في شيء غير قرض بعض الكُتُب القديمة، والعيش في ثقوب الأوراق الضائعة، أن تلد فئراناً آخرينَ في أعشاش دافئة. الفئران الصغيرة تلفُّ في كرات تماماً، مثلما تلفُّ الغجرية نفسها، وتستلقي معي في الليالي الباردة. الجنّة ليست إنسانية، لقد نسيت الشفقة والحبّ.

الفصل السادس

منذ خمس وثلاثين سنة وأنا أسحق الأوراق المهملة في آلتي الهيدروليكية، منذ ٣٥ سنة وأنا أتشبّث بفكرة أن لا طريق آخر لي. لكنني بدأتُ أسمع أنباء حَول آلة أخرى في بابني، آلة ضغط كبيرة، تقوم بعمل عشرين آلة، وقال شهود عيان إنها تسحق أكواماً بوزن سبعمئة أو ثمانمئة باوند، تصلها الأكوام مباشرة من القطار عبر الرافعة الشوكية. قلتُ لنفسي «هذا أمر عليك رؤيته بأمّ عينيك، يا هانتا... لقد حان وقت مكالمة لطيفة.

عندما وصلتُ إلى بابني، رأيت هيكلاً بلورياً هائلاً، بينما كان وقع الآلة يندفع عالياً، كنتُ مرتعداً، ولا أستطيع النظر إلى الآلة. فقط جلستُ هناك، وأدرتُ رأسي جانباً، أتخبّط في خيط حذائي ... أفعل كل شيء؛ كي لا يقع بصري على الآلة؛ كي أنظر في كمّيّة من الأوراق المَرمية، وأن أجد الشوك ولوحات كتاب نادر، كان دائماً علاجاً استثنائياً بالنسبة إليّ. بدل أن أذهب خلفها في المحلّ. سآخذ جانباً من الصوف الصلب، وأفرك العود جيّداً، ثمّ أنظر مرّة أخرى، سأرفعها حتّى وإن كانت ترتعد في كفّي مثل باقة عروس في الهيكل. كانت هذه هي الطريقة في الأيام الخوالي أيضاً، عندما لعبتُ الكرة مع فريق قروي. علمتُ أن التشكيلة لن يتمّ اختيارها في حانة لوار حتّى يوم الخميس، لكنني سأذهب إليهم يوم الأربعاء. قلبي ينبض بقوّة، بينما أنا أقف هناك منفرج الساقين بجانب درّاجتي مُحدّقاً في اللوحة ذاتها ـ القفل، الخزانة البلّورية. لم يكن في وسعي النظر مباشرة

في الإشعار، ثمّ قرأتُ اسم نادينا حرفاً بعد آخر، ثمّ نظرتُ مباشرة إلى التشكيلة، ولكنْ؛ بما أنه كان يوم الأربعاء ما تزال تشكيلة الأسبوع الماضي هي نفسها، لذلك غادرتُ؛ لأعود في اليوم الموالي؛ حيث سأقف كالعادة بجانب درّاجتي مُحدّقاً في كل شيء ما عدا التشكيلة، ومرّة واحدة سأعتني بنفسي، سأقرأ بتأنّ تشكيلة الفريق الأوّل، وتدريجياً أقرأ تشكيلة الفريق الثاني، وبأناة سأقرأ تشكيلة فريق الشباب إلى أن أجد اسمي ضمن بنك الاحتياط، عندها لا أعلم إذا كنتُ سعيداً مرّة أخرى.

أقف أمام آلة الضغط الهائلة في بابني، وعندي الشعور نفسه، بداية صدمة، تحكّمتُ في نفسي، وحدّقتُ في الآلة التي ترتفع إلى السقف البلّوري مثل هيكل القدّيس نيكولاس في براغ. كانت أكبر حتّى ممّا توقّعتُ، كانت بحزام توصيل طويل وعريض تماماً مثل الحزام الذي يرمي الفحم تحت حاجز محطّة هولشوفيتسه، ولكن الذي كان يمضي نحوها ببطء كان مجموعة من الكُتُب، يضعها عمّال صغار السّنّ، يرتدون أزياء مختلفة عن التي أرتديتها أو يرتديها غيري في أثناء العمل: كانوا يرتدون قفّازات وردية وزرقاء مع قبّعات بيسبول أمريكية، ورداءً يغطّي كامل الصدر، وحمالّتي بنطلون تتمايل على الكتف، وتلتقي على الظهر، وتخفي أقمصتهم بضراعتها المَخفيّة.

هنا أنا أرى ضوء المصباح: ضوء الشمس يتدفّق عبر الحيطان البلّورية وسقف البلّور. السقف لديه نظام تهوية يعملُ. كانت القفّازات تُزعجني. كنتُ دائماً أشتغل من دونها، أعشق مشاعر الورق وهو يتسرّب بين أصابعي، لكنْ؛ لا يوجد أحد هنا لديه رغبة ولو قليلة؛ كي يجرّب ملامسة الأوراق المتّسخة. كان حزام التوصيل يدفع الكُتُب مع قصاصات متنوّعة من الأوراق البيضاء، تماماً كما لو أن مدرج ساحة فاتسلاف يدفع الناس

إلى الشارع. الأوراق تندفع مباشرة إلى البرميل، برميل كبير مثل مرجل، يُستعمَل لتخمير بيرة سميتشوف. وعندما يمتلئ البرميل، يتوقّف الحزام بنفسه، وشيء أشبه بمروحة يندفع من السقف يكرّس كامل قواه باتّجاه الورق، وبشخير رائع يعود إلى السقف؛ حيث تتلعثم على الكُتُب، وتصوغ منها إيقاعاً، وترمي بها في برميل حادّ وكبير أشبه بنافورة تجثم في ساحة شارلي.

الآن هدّأتُ من روعي بما يكفي؛ لأرى أن الآلة تضغط وتُعلّبُ كلّ حمولات الكُتُب، وعبر الحائط الزجاجي أستطيع رؤية الشاحنات وهي تدفع صناديق الكُتُب مُكدّسة إلى الحافة. كلّ الكُتُب تمرّ مباشرة نحو السَّحْق قبل أن تُلوّث صفحة واحدة بعين الإنسان، أو عقله، أو ربمّا قلبه. كلّ ما أراه الآن عملة بجانب حزام التوصيل يمزّقون الصناديق، ويحملون الكُتُب العذراء، يمُزّقون أغلفتها، ويرمون الجوانب العارية على حزام التوصيل، لا يبالون بأية صفحة يُسقطونها عليها: لا أحد يُحدّق فيهم، لا أحد يحلم ولو بنظرة تجاهها؛ لأنني إن كنتُ أوقف آلتي كامل الوقت، فهم دائماً ما يملؤونها، ويتركون الحزام ممتلئاً، وهو يعمل.

كان ذلك عملاً لا إنسانياً، عملهم الذين يقومون به في بابني، كان أشبه بعمل في سفينة صيد، عندما تلوح الشباك، ويقوم الصيادون بفرز الأسماك من الأسماك الصغيرة إلى الأسماك الكبيرة، يدفنونها في الأحزمة، ويجعلونها تعبر مباشرة نحو آلة التعليب داخل أحشاء السفينة: سمكة خلف أخرى، كتاب خلف آخر.

استجمعتُ قواي، تسلّقتُ بعض الدرجات في اتّجاه المنصّة الممتدّة على البرميل. عندما مشيتُ عبرها، تخيّلتُ نفسي في غرفة سميتشوف لتخمير البيرة؛ حيث يقومون بتخمير خمسمئة هيكتوليتر من البيرة كلّ مرّة،

وفي الطابق الثاني، يقومون بوضع سقالة لمنزل تحت الترميم. نظرتُ إلى الأسفل، ورأيتُ لوحة تحكّم بأزرارها الملوّنة، بينما كان المحرّك يدهس ما يوجد في البرميل بالطريقة نفسها التي تدهس بها أنت تذكرة بين أصابعك دون أن تشعر بذلك. كنتُ خائفاً وأنا أنظر إلى هذا الطريق وذاك، وما رأيتُه كان مجموعة من العملة يستحمّون في شمس الجدار البلّوري، ملابسهم وأقمصتهم وقبّعاتهم ضاعت في عربدة اللون، كانوا مثل طيور غريبة، مثل طيور القاوند، مثل عصافير الدغناش النرويجية، مثل ببغاوات. لكنْ؛ لم يكن ذلك ما أخافني. ما أخافني أنني فجأة علمتُ شيئاً مؤكّداً أن آلة عملاقة أمامي كانت تبعث ضجيج آلات صغيرة. رأيتُ أن ذلك يعني عهداً جديداً في اختصاصي، أن هؤلاء الأشخاص كانوا مختلفين، وعادتهم أيضاً مختلفة. رحلوا حيث ترمى أيام الفرح الصغير والاكتشافات والكتب، بلا قصد. هؤلاء الناس يقدّمون طريقة جديدة في التفكير حتّى وإن أخذ كل منهم كتاباً مع كل عملية طبع أجراً على مجهودهم، لن يكون ثمّة فرق. ستظلّ تلك نقطة نهايتنا، الحارس القديم لأننا جميعنا تعلّمنا عن غير قصد. كلّ منّا لديه مكتبة لائقة في منزله عليه إنقاذها. وكل منّا يقرأ تلك الكُتُب في منتهى السعادة، والأمل في تغيير شيء ما من حياته. لكن أكبر صدمة كانت عندما رأيتُ العمّال الشبّان يشربون الحليب والمشروبات الغازية، وتتسرّب إلى سيقانهم، وأكفّهم إلى الخلف، مستقيمة في اتّجاه القنّينة. لاحقاً علمتُ أن الأيّام الجميلة أتتْ إلى نقطة نهايتها، الأيّام التي كان فيها عامل يزيح الورق المهمل بنفسه، يجثم على ركبتيه في قتال الواحد للواحد، وينتهي كل يوم أكثر قذارة، ومنهكاً من مجهوده.

كان جيلاً جديداً من رجال جدد وطرق جديدة، أن تفكّر في شرب الحليب في أثناء العمل، حتّى البقرة تُفضّل الموت عطشاً على أن تلامس قطرة من تلك الأشياء.

لم أستطع الاحتمال أكثر، لذلك أحطتُ بالآلة؛ كي آخذ نظرة على غلال العامل المشرف عليها. كومة وحيدة هائلة بحجم قبر عائلة غنية، بحجم حافظة نقود فيرتهايم. رأيتُها وهي تهبط إلى منصّة الرافعة الشوكية الشبيهة بحرباء. الرافعة التي تبسط طريقها على الجوانب؛ كي ترسم منحدراً، يُحمل مباشرة إلى سيّارة الشحن. وضعتُ رأسي بين يديّ. يدَي إنسان متّسختين، بسبب العمل، بأصابعهما المتشابكة مثل الكروم. لكنْ؛ مع الوقت أسقط مشمئزّاً وأنا أشاهد ذراعيّ تتدلّيان من كتفي.

حلّ بعد ذلك موعد الاستراحة، وتوقّف حزام التوصيل، بينما جلس العمّال تحت لوحة كبيرة مجهّزة بكلّ أنواع الإعلانات والنصائح المعلّقة. أخذ كلُّ عامل زجاجة من الحليب، وقام بتناول وجبته المقدّمة من النساء المشرفات على الغداء. عندما كانوا جالسين هناك، كانت جلساتهم مؤثّثة بضحكاتهم وهمساتهم، بينما كانوا يقتسمون السلامي والجبن ولفائف الزبدة مع الحليب والمشروبات الغازية.

وقفتُ متشبّثاً بالعمود الحديدي، يتملّكني خوف من إيقاعي في نوع من المحادثات التي تنتابني. غادرتُ لوجود فرقة من الحزب الاجتماعي. كلّ جمعة يرسل المصنع حافلة من أجل إيصالهم إلى مصنع شالي في جبال كرك نوشي، في آخر سنة ذهبوا إلى جولة في فرنسا وإيطاليا، وفي هذه السنة، كانوا في بلغاريا واليونان. قبل رؤيتهم وهم يجمعون الأسماء من أجل جولة في البلقان، ويأمرون بالإمضاء واحداً بواحد، لم أكن متفاجأ جداً وأنا أراهم نصف عراة وهم يستغلّون أشعّة الشمس، أنا الآن في الأعلى، أسمعهم وهم يتبادلون الحديث حول تمضية ما تبقّى من المساء، مُمزّقين بين خيار اللعب بجانب النهر، والانغماس في لعبة كرة قَدَم.

عطلتهم في اليونان قادتْني إلى الوقوع في صدمة حقيقية: حلمتُ

بنفسي في اليونان عبر قراءتي لهردر وهيغل، كوّنتُ مفهوماً محدوداً حول العالم بقراءتي لفريديك نيتشه، لكنني لم أكن يوماً في عطلة. قضيتُ عمري في خسراني وإهمال وقتي. يخصم لي مدير العمل يومين من العمل مع كلّ غياب دون عذر.

كنتُ أعمل من أجل أجر إضافي؛ لأنني كنتُ دائماً في المؤخّرة، كان هناك دائماً كمّيّة من الأوراق في كلّ من المستودع والباحة، الكثير من الأوراق التي تعذّر عليّ الوصول إليها.

منذ خمس وثلاثين سنة عشتُ معها وعبرها، في مركب سيزيف اليوم، نوع من العمل الذي تراءى لي عبر السادة سارتر وكامو خصوصاً. كلّما خَرجت أكوام الكُتُب من باحتي أتى ضعفها؛ ليملأ مستودعي؛ حيث كانت فرقة الحزب الاجتماعي في بابني في الموعد دائماً. الآن عادوا إلى العمل، بسمرة جميلة، أضفت عليها الشمس عمقاً على مسحة أجسادهم الإغريقية رغم تعبهم. لم يكونوا حزينين في فكرة الذهاب إلى اليونان مع عدم علمهم المسبق بأرسطو أو أفلاطون أو حتّى غوته. ذلك هو الامتداد لليونان القديمة، لذلك ذهبوا فقط للعمل، ينزعون أغلفة الكُتُب، ويقذفون الصفحات المعذبة فوق حزام التوصيل، بهدوء تام ولامبالاة، دون أدنى إحساس بما قد يعنيه الكتاب. لا فكرة حول أن شخصاً ما في وسعه أن يؤلّف كتاباً، وأنّ شخصاً ما عليه مراجعته، وشخص ما عليه تصميمه، وشخص ما عليه بناؤه، وشخص ما عليه التدقيق في ملامحه، وشخص ما عليه تصحيحه، وشخص ما عليه أن يقرأ لوحة البيانات، وشخص آخر عليه أن يدقّق في بياناته وطباعته، وشخص ما عليه أن يشدّ الصفحات إلى بعضها بعضاً، وشخص ما عليه أن يضع الكُتُب في صناديق، وشخص آخر عليه القيام بحسابات، وشخص ما عليه أن يحكم أن الكتاب غير مؤهّل للقراءة،

وشخص آخر عليه أن يأمر القارئ من أجل أن يجد للكتاب معنى، وشخص آخر عليه أن يضع الكتاب في مخزن، وشخص ما عليه أن يضع الكُتُب في عربة، وشخص عليه أن يقود العربة هنا؛ حيث يرتدي العمّال قفّازات برتقالية وزرقاء باهتة، تمزّق أحشاء الكُتُب، وتدفنها في حزام التوصيل التي تمزّق الصفحات بصمت، وترميها في الآلة العملاقة، وتصنع منها أكواماً من الكُتُب، تذهب إلى معمل الورق؛ لتصير أصدق؛ لتصير صفحات بيضاء لا غير، أوراقاً طاهرة خالية من أي حرف، صفحات ستصبح في النهاية روح كتاب آخر.

عندما جلستُ هناك، منحنياً على الدرابزين مُحدّقاً في سير العمل تحتي. مجموعة من الأطفال مع أستاذهم يظهر مع ضوء الشمس، في رحلة مدرسية. رأيتُ أن تلك كانت فرصة للأطفال من أجل رؤية كيفية تمزيق الورق. أخذ الأستاذ كتاباً، وطلب من تلامذته الانتباه، وجسّد لهم كيفية تمزيق كتاب إلى أشلاء قبل أن يأخذ التلاميذ جميعهم كُتُباً، يرتدون سترات متّسخة، ويبدؤون بتمزيق الكُتُب. ولكن ذلك لم يمنع الكُتُب من المقاومة. كان ذلك بمفعول أصابعهم الصغيرة التي سمحت للكُتُب بالمقاومة. ولكنْ؛ في النهاية، فازت أصابعهم. وتدريجياً صقلت جبهاتهم وعملهم في آن. كان للأمواج تأثير في ذلك من أعلى الجسر، حدث ذلك دون عقد. ذكّرني ذلك بفترة زيارتي لمزرعة الدواجن؛ حيث رأيتُ فتيات يسحبنَ أحشاء الدجاج المعلّق مباشرة في حزام التوصيل، يشتغلنَ بتناسق مع الأطفال الذين يُمزّقون أحشاء الكُتُب، يدفنون أكبادها، رئتها، ويرمون قلبها في أسطل لائقة، بينما يدفع حزام التّوصيل الدجاج المرتعش من أجل مزيد من المعالجة. وما صدمني أكثر تلك السعادة التي بانت على أوجه الفتيات في لابوس، وهنّ يتعاملنَ مع آلاف الأقفاص. كل قفص يضمّ عشر دجاجات إضافة إلى بعض الطيور الفارّة التي تتهادى حول سجونها،

ولا تفكّر في الهروب بعيداً عن السّنانير التي تنتظرها على حبل التوصيل. وعلى كل حال، عُلّم الأطفال أن يمزّقوا الكُتُب إلى أشلاء، وهم يُظهرون حماسة، إلى درجة أن طفلاً أو بنتاً يعذّبان أصابعهم الرّقيقة من أجل تمزيق أغلفة الكُتُب المتّسخة التي أعلنت ثورتها، ورفضت الاستسلام. وعندما كان أساتذتهم يضمّدون جراحهما، قدم بعض العملة من أجل الإنقاذ. يُريقون أحشاء الكُتُب المتمرّدة، ويرمونها فوق حزام التّوصيل، وينفضون الغبار عن معاصمهم. ربّما تكون الجنّة بعيدة عمّا هو إنساني؛ لأنها تحمل كل ما سعيت إلى امتلاكه.

عدتُ إلى وجهتي، نزلتُ الدّرج، وكنتُ في طريقي إلى سماع صوت ينادي " هاي هانتا، لقد أمضيت حياتك وحيداً، ماذا انتزعتْ منك الآلة الجديدة؟" عدتُ إلى الخلف، ورأيتُ رجلاً شاباً، يرتدي قبّعة بيسبول يقف أمام الشمس بجانب الدرابزين حاملاً علبة حليب، تتملّكه نظرة تكلّف تماماً مثل نظرة تمثال الحُرّيّة. كان يضحك، ويحرّك الزّجاجة. اكتشفتُ أنه كان على علم بما أكون أنا. كنتُ حائراً من شعوري بالافتتان بالآلة الجديدة. والآن أصبحوا يضحكون ويلوّحون بقفّازاتهم الزرقاء في الهواء. وضعتُ رأسي بين يدَي، وهرعتُ باتّجاه غرفتي، بعيداً عن ضحكاتهم الصاخبة، هرعتُ سالكاً آلاف صناديق الكُتُب. آلاف الكُتُب تركض إلى الخلف، وتترنّح إلى الأمام. وقفتُ في نهايتها، أصارع من أجل فتح ولو صندوق من الكُتُب. وما رأيتُه كان مشهداً مكرّراً، أطفال يُمزّقون الكُتُب إلى أشلاء، الكُتُبُ التي ثأرت لنفسها في أصابع الأطفال. كانت حرباً مسبقة، رواية مغامرات ليافعين. دفعتُ أحد الكُتُب، ونظرتُ إلى آخر صفحة، وهناك قرأتُ أنّ ٨٥ ألف نسخة طُبعت، وبما أنّ هناك ثلاثة مجلّدات، وأن ربع مليون من الكُتُب ستشنّ حرباً ضروساً مع أصابع الأطفال. وعندما سلكتُ الرّواق، آلاف الكُتُب الصامتة ومنخورة القوى مرّت بجانبي مثل الدجاج المكسور في

أقفاص الجزّارين في لابوس، الدجاج الذي تهادى ونقر للحظات، وكان دائماً في قبضة فتيات اللواتي علّقنها في سنانير حزام التوصيل، وهكذا تمّتْ إدانتهم تماماً كالكُتُب المكدّسة في الزّقاق، وتمّ الزّجّ بهم في قبر طريّ.

كنتُ سأسافر إلى اليونان، قلتُ لنفسي، قمتُ بالحجّ إلى أسطاغيرا، مكان ولادة أرسطو. ركضتُ في أنحاء الأولمب، ركضتُ بملابسي الدّاخلية بسروال جينز، وحذاء ربطتُ خيطه بكاحلي على شرف بطل الأولمب. إذا توفّرتْ لي فرصة الذهاب إلى اليونان، سأذهب مع فرقة الحزب الاجتماعي. قدّمتُ لهم محاضرة حول الفلسفة والهندسة. علّمتُهم طرق الانتحار. حاضرتُ حول ديموستينيس، أفلاطون وسقراط. إذا توفّرتْ لي فرصة الذهاب إلى اليونان مع فرقة الحزب الاجتماعي. لكنّهم ينتمون إلى عهد جديد، إلى عالم جديد. كلّ شيء تغيّر الآن. تراودني هذه الأفكار، أمشي كي أكمل خطواتي في اتّجاه مستودعي؛ كي أغوص في ظلمته مكملاً واجباتي. أبدأ بالتّربيت على البرميل الذي يلمع، على الخشب المشوّه ريثما أسمع صرخة، هديراً كئيباً. ثمّ أعود إلى الخلف؛ كي أجد سيّدي وهو يحدّق فيّ بعين دامية. رامياً شتائمه وغضبه حول سبب غيابي الطويل، عن مستودعي وباحته التي تعجّ بالأوراق مرّة أخرى، ولكنني لم أعِ ما قاله، شعرتُ بكَمّ كبير من الحقارة يجتاحني، وكم كان شديد الغضب معي؛ لأنّه ظل يخاطبني باسم لم يتجرّأ أحد بمناداتي به: المغفل، نعم، المغفل.

عملتُ نصف اليوم دون راحة، فركتُ الصحف في البرميل، كما لو كانت فوق حزام التوصيل في بابني، وكلّما ارتعشت الكُتُب الممزّقة في كفّي، مزّقتُها مردّداً لنفسي: لا، لا يجب عليك تمزيق ولو كتاب واحد. كنْ باردا كجلاد كوري. أشتغل كما لو كنتُ أجرف كومة من أشياء لا قيمة لا، اشتغلت الآلة معي. تبصق وترتعش، محرّكها ترتفع حرارته؛ لأنه لم يكن

معدّلا على أية درجة حرارة، وكان أغلب الوقت مزدحماً ومرتوياً نتيجة بهواء المستودع. عندما شعرتُ بالعطش، ركضتُ جيئة وذهاباً حاملاً معي علبة حليب. وكلّما ارتشفتُ منها، كانت كل قطرة أشبه بسلك شائك. لم أتوقّف، ارتشفتُها كاملة مرّة واحدة. بالطريقة نفسها التي آخذ فيها زيت سمك القد مثل كطفل. وعلى أيّ حال. كان الحليب مروّعاً، إلى درجة أنني ظللتُ ساعتين من أجل أن أُبعد الأوراق عن فتحة المستودع مرّة أخرى، وكان لذلك أهمّيّة كبرى بما أن اليوم خميس.

كنتُ كلّ يوم خميس أنتظر بتوتّر شديد مدير مكتبة كومينيوس للقيام بزيارته، وبالتّأكيد سيأتي، ويظلّ واقفاً على فتحة المستودع حاملاً سلّة مليئة بفلسفة الرفض. ولكنْ؛ عندما أُفرغها، لم أقم بأخذ كتاب من الكُتُب التي تساقطت بين قَدَمَيّ. أزحتُها مباشرة، ورميتُها في البرميل حتّى وإن لم أنتبه عندما ينشرح قلبي، وأنا أنظر إلى كتاب ميتافيزيقيا الأخلاق، وهي تغرق في كمّ الفضلات. واصلتُ عملي، كنتُ أقوم بصنع الكومة خلف الأخرى. لا رسالة حولي الآن، الكومة هي كومة. أفعل فقط ما من خلاله أجني المال. أيامي الفانية انتهتْ، واكتشفتُ أنني إذا فعلتُ ما توجّب علي فقط فعله في وسعي أن أكون رجلاً من رجال كتيبة الحزب الاجتماعي، وإذا قمتُ برَفْع دخلي ب٥٠ بالمائة سيكون لي فرصة العمل في معمل الشاليه في الجبال، والأكثر أهمّيّة أنه سأحصل على عطلة في اليونان الرائعة. بلغة أخرى، هي فرصة من أجل أن أركض حول مسار الأولمب، وأن أصبّ احترامي لأرسطو في أسطاغيرا.

ظللتُ أشرب الحليب، وأعمل، أعمل بلا إنسانية، بلا إحساس، بقوّة العمل ذاته في معمل بابني. وفي المساء عندما أنتهي وأكون قد أثبتُّ أنّني لم أكن مغفلاً بعد كلّ الذي حدث، يصرخ مديري، بينما يقوم بالاستحمام

في المرافق خلف المكتب دون حاجته إلى أن يمضي ما تبقّى من وقته في صبّ غضبه عليّ، بل سأرسل رسالة إلى كوادر العمل قائلاً لهم بأن يتعاملوا معي كما يجب.

جلستُ هناك للحظات، مُنصتاً إلى المدير وهو يجفّف نفسه بمنشفته. حينها، كان ثمّة موجة من الحنين تجتاحني إلى مانسا التي كتبتْ لي عديد المرّات داعية إيّاي إلى حيث تعيش الآن بالقرب من كلانوفيس. لذلك وضعتُ جورَبَيْن فوق قَدَمَيّ القذرَتَيْن، وأسرعتُ من أجل أخذ الحافلة. كان الظلام سيُخيّم، وسأفوّت عليّ الحافلة. وجدتُ شخصاً أخبرني عن عنوانها، وسرعان ما وجدتُ نفسي أقف أمام كوخ في غابة. كانت الشمس تغرق خلفه. لكنني عندما فتحتُ الباب، لم أجد أحدا في الصالة أو المطبخ أو في أي غرفة من الغرف. لذلك رجعتُ إلى الحديقة، وهناك صُعقتُ أكثر من حالتي تلك في بابني.

هناك، خلف أشجار الصنوبر المنتشرة وتحت وميض السماء، يقف تمثال هائل لملاك، كبير مثل نصب تشيك في براغ، أمام التمثال كان هناك سلّم. وعلى السلّم كان هناك رجل عجوز في ثوب أزرق فاتح، مجموعة من البطّ الأبيض، امرأة جميلة تطلّ برأسها من خلف صخرة حاملة مطرقة. أو ربمّا كان رأس شخص، لا هو برجل، ولا هو بامرأة. وجه خنثوي لجندي من جنود السماوات. رأيتُه وهو ينظر إلى الأسفل، ولاحقاً كان ينظر إلى امرأة تجلس قبالته، وهي تشمّ وردة. رأيتُه وهو يُغيّر ملامحه في اتّجاه صخرة بازميل. كانت تلك المرأة مانسا. مانسا لديها شعر رمادي الآن، إحدى عينيها كانت منخفضة عن الأخرى؛ ممّا أسند إليها نظرة فارقة. كانت تبدو حولاء نوعاً ما. لم يكن ذلك لأن لها نظرة سيئة، بل لأن إحدى عينيها كانت تغرق كلّما حدّقتْ خلف عتبة الأبدية، كما لو كانت تنظر

إلى مثلّث متساوي الأضلاع؛ لتغرق في داخل مركز الوجود بثوب وجودية كاثوليكية. عينها المختلّة ترمز إلى عيب الماس الأبدي.

على أي حال، جلست هناك مشدوهاً، وما فاجأني أكثر كان ذلك التمثال ذا الجناحَيْن الكبيرَيْن اللذين كانا أشبه بخزانتَيْن كبيرتَيْن. كانا يتحرّكان، الجناحان وكلّ ما حولهما. كانت مانسا تظهر وهي تُحرّك جناحَيْها بعد التحليق، أو قبل الهبوط.

أستطيع بكلتا عينَيّ أن أنظر إلى مانسا، التي كانت دائماً تكره الكُتُب، مانسا التي لم تقرأ كتاباً في حياتها، باستثناء تلك التي تحملها دائماً إلى النوم بسرعة. كان يومها ينتهي مثلما تنتهي أيّام الملائكة.

في ذلك الوقت، مهّد الشفق طريقاً نحو الظلمة، وعندما كان الفنّان العجوز يقف من أجل تعديل السّلّم، كما لو كان يتدلّى من السماء.

مدّت مانسا يدها في اتّجاهي، وأخبرتْني أن العجوز كان آخر عشيق لها، آخر ما يربطها بسلسلة الرجال الذين عرفتْهم. كان ذلك نتيجة لمحاولته أن يعشقها بتلك الروح التي قرّر أن يعوّض لها عبر بناء تمثال لها، وعبره تستطيع أن تنتشي بالحديقة بقيّة حياتها، وتضعه على قبرها كفناً ثقيلاً عندما تموت. وعندما كان يعمل، مفضّلاً العبارة التي كانت على وجه الملاك الساطع أمام ضوء القمر. أظهرتْ لي مانسا الكوخ، من القبو إلى العليّة مُفسّرة بصوت خافت كيف جاء الملاك، وكيف امتثلتْ له، وطار بمسحاته، ورمى كلّ أشيائها في الأرض في الغابة. ضرب الفأس الأرضية، ونام في خيمة معها. ولكنْ؛ بعد ذلك، رمتْه إلى فوق من أجل البناء الذي صنع الحبّ لها في الخيمة، وقام برفع الحيطان، وبعد ذلك، حلّقتْ مانسا مع النجّار الذي قام بعمله، وقام بمشاركتها فراشها، ولكنْ؛ لاحقاً رمتْه إلى السمكري الذي نام في الفراش نفسه الذي نام عليه النجّار؛ فقط كي ينام

بدله عامل السقف الذي يمارس معها الجنس، ويبني لها سقفاً بخرسانة القرميد، والذي في نهاية المطاف عوّض ببنّاء آخر. البنّاء الذي قام برشّ الحائط، إلى أن أخذتْ برأي صانع الخزائن الذي قام بتأثيث المنزل بأثاث جديد بعودته إلى فراشها. كانت تلك مانسا. بلا شيء غير فراشها وهدف واضح المعالم أن يكون لها بيت. والآن هي مع فنّان، رغم حبّه الأفلاطوني، كان كما لو كان قد دفن تمثالاً لها في شكل ملاك. التمثال الذي حملنا إلى نقطة البداية، ويكمل دورة مانسا الحياتية في الوقت المناسب من أجل رؤية البطّ الأبيض. وثوب أزرق يمتزج مع ضوء القمر. كان شفّافاً. يتسلّق السّلّم كما لو كان في قادماً من الجنّة. وعندما ضغط حذاءه على الأرضيّة، قدّم لي الشيخ الأشيب يدَيْه، وقال إن مانسا حدّثتْه عن كل شيء يتعلّق بي، إن مانسا كانت شاعرته، وإنّها قدّمتْ له خدمة جليلة؛ ممّا جعله في استعداد لمواصلة العمل وبناء ملاك لها.

عدتُ إلى براغ في القطار الأخير. عدتُ إلى المنزل، كنتُ سكراناً، وأنا أستلقي على الفراش بملابسي مع طنّين من سرادق الكُتُب. وكلّما استلقيتُ هناك مفكّراً، اكتشفتُ أن مانسا صارتْ دون أن تشعر شيئاً ما لم تحلم يوماً أن تكون عليه. وأنّها ذهبتْ أبعد ممّا يتصوّر البعض. أنا الذي أقرأ الكُتُب باستمرار من أجل العثور على إشارة، لم أتلقَّ ولو كلمة من الجنّة، بينما هي، التي كرهت الكُتُب على الدوام، صارت كما تريد، شخصاً يكتب الناس عنه، والأهمّ من ذلك، حقّقتْ شموخها الذي سعتْ إليه.

عندما غادرتْ، لمع جناحاها مع الليل مثل نافذتين في القصر الملكي. لقد أخذوها بعيداً خلف قصة حبّنا. خلف شرائطها وخلف الروث الذي عادت به في مزلاجها، وتنزهّت عبره أمام نزل رينير على خاصرة جبل الغولدن بيك.

الفصل السابع

منذ خمس وثلاثين سنة وأنا أسحق الكُتُب القديمة في آلتي الهيدروليكية. لم أحلم أن أفعل أيّ شيء آخر، لكنْ؛ بعد يومين من رؤيتي للآلة العملاقة في بابني، تحقّقت الأحلام التي لم أحلم بها قط.

ذات صباح استيقظتُ للعمل؛ لأرى في الساحة شابَّيْن من الحزب الاجتماعي بقفّازاتهما البرتقالية، ورداءَيْن أزرقَيْن، وحمّالات بنطلون، وياقتَيْن عاليتَيْن، وقبّعتَي بيسبول صفراوَيْن، كما لو كانا في طريقهما إلى مباراة. مديري أخذهم بقوّة إلى أسفل مستودعي، وأراهم آلتي. في لحظة، قاموا بتغطية الطاولة بورقة نظيفة؛ لوضع الحليب عليها، وكأنهما في منزليهما. جلستُ هناك يتملّكني الخزي، متوتّراً ومشمئزّاً، عالماً بكلّ هذا دفعة واحدة، بالروح والجسد، بالأشياء التي لم أستطع احتضانها إلى الآن. كنتُ في الموقف نفسه حين انتحر الرهبان عندما علموا أن كوبرنيكوس اكتشف قانوناً جديداً من قوانين الكون، وأن الأرض ليست مركز الكون. لم يتخيّلوا أبداً أن الأرض مختلفة عن ذلك الشيء الذي عاشوا فوقه وفيه قروناً طويلة.

كان مديري يأمرني أن أكنس الباحة، أو أرتّب مستودع مولنترش للطباعة، أو أنظف الأوراق، لا شيء غير ذلك. فجأة عاد كل شيء إلى الوراء. أنا، الذي أمضى ٣٥ سنة وهو يمزّق الأوراق القديمة والمتّسخة. أنا الذي لا يستطيع العيش دون فكرة أن أُنقذ الكُتُب الجميلة من الفضلات الكريهة. سيكون عليّ أن أضغط الأوراق النقية والأوراق اللاإنسانية سوية. عندما

سمعتُ ذلك، كنتُ مذهولاً، متوتّراً، سقطتُ جراء وثبة عالية من أوّل درج من المستودع. كتفاي يتدلّيان بين ركبَتَيّ، وابتسامة متشقّقة في وجهي كلّما حدّقتُ في الشابَّيْن. لم أكن هناك من أجل لومهما، وعموماً، هما يقومان بما أُمِرا به. كان ذلك هو عملهما اليومي الذي من خلاله يعتاشان منه، ذلك هو عملهما. رأيتُهما يأخذان الأوراق الممزّقة، ويضعانها في البرميل، ويضغطان الزّرّيْن الأحمر والأخضر. تمنّيتُ لو أن آلتي تُضرب عن العمل، أو تدّعي المرض، أو أن تقول إن التروس قد توقّفتْ، أو أن إطاراتها قد ضعفتْ. لكنها لم تكن كذلك، كانت على قوّتها المعهودة، كما لو كانت في بداية شبابها، تغنّي وترقص وتشدّ الأحزمة. كانت تسخر منّي. تُريني أن القوّة توجد في أكفّ الحزب الاجتماعي فحسب. عليّ أن أعترف أنه في ساعة أو ساعتَيْن بدا الشابّان كما لو أنهما يعملان في المستودع منذ سنين. قسّما العمل بينهما، أحدهما يتسلّق الحزمة؛ كي يقدّم بعض الورق، والآخر يراقب البرميل في الأسفل. في ساعة واحدة أنهيا خمسة أكوام. في كل مرّة كان ينحني المدير على الفتحة في السقف، ويقدم لهما جولة مسرحية من التصفيق بيدَيْه السمينتَيْن. يُحدّق بي من الأعلى عبر الزاوية بعينيه صارخاً. برافو، برافيسيمو. وبعد ذلك، يضيف ميلودوتسي. حينها يكون عليّ أن أخفض عينَيّ، منتظراً إيّاه أن يرحل، لكنني لا أستطيع أن أحرّك ركبتَيّ. شعرتُ بالخدر لشدّة العار، وكان أصوات الآلة تقول لي إن البطولة ستصل إلى نهايتها.

رأيتُ لاحقاً كتاباً يُحلّق عبر الأسنان اللامعة في البرميل. وقفتُ، دفعتُه جانباً، ومسحتُه بسترتي. ضممتُه إلى صدري لبرهة مثلما تضغط أمّ على ابنها، وتشدّه إلى صدرها. مثل جون هوس في تمثال كولين؛ حيث يضغط الإنجيل إلى صدره، إلى أن يدخل نصفه إلى جسده. بارداً كان كما كان. لكن الكُتُب دفّأتْني.

رغم ذلك، حدّقتُ في الشابّيْن اللذين كانا يُحدّقان بي كما لو أن لا

شيء قد حدث. استجمعتُ قواي، وحدّقتُ في العنوان، نعم، كان كتاباً رائعاً. سجّل تشارلز ليندبيرغ لأوّل عملية طيران حول المحيط. في العادة كنتُ أفكّر في فرنتيك شتورم، حفظ غرفة المقدّسات، مجموعة من الكُتُب والمجلات حول الطيران؛ لأنه كان متأكّداً أن إيكاروس كان المنذر بقدوم المسيح. الفرق فقط أن إيكاروس سقط من السماء إلى البحر، بينما المسيح أُرسِل في صاروخ أطلس، بوسعه حمل ٥٨٠٠ باوند إلى ارتفاع ٣٥٠ ميلاً، ولا يزال يدير مملكته الأرضية حتّى اليوم.

قلتُ لنفسي أن أسلك رحلة أخيرة إلى فرنكلين شتورم، إلى مختبره حاملاً قصّة ليدينبيرغ الذي عبر المحيط، ثمّ ودّع الأفراح البسيطة.

كنتُ أترنّح في الساحة؛لأرى أمامي المدير الذي كان مبتهجاً، ويزن كتب فتاة اسمها هيدفيكا، ثمّ يزنها مع الكُتُب التي أتتْ بها. لم يتغيّر أبداً: رأيي تّجاه الكُتُب القديمة، شعرتُ بالفتيات الصغيرات، كان يزنُ كتبهنّ، وبعد ذلك يزنهنّ. لم يخفق يوماً في وزنهنّ.

كان يحتفظ بمفكّرة عن أوزانهنّ، ويمازحهنّ حتّى أمام الغرباء. كان يرفعهنّ من الخصر، ويضعهنّ على الميزان كما لو كان يريد تصويرهنّ. في كل مرّة كنّ يأتينَ، كان يقدّم لهنّ درساً طويلاً حول العمل على ميزان بيركل. كنّ ينظّفنَ أكتافهنّ وصدورهنّ باستمرار، وكلّما كان يُعلّمهنّ كيف تعمل المؤشّرات كان يقف خلفهنّ، والآن هو يقف خلف هادفيكا. يُمسكها من وركيها، وأنفه يستنشق شعرها بطريقة مفعمة بالنشوة، وذقنه تشير إلى المؤشّرات. لاحقاً يقفز؛ ليُحييها؛ لأن وزنها لم يزدد، بعد أن يحصل على النتيجة، يساعدها بالنزول. يده على معصمها مرّة أخرى، أضاف كالعادة إنّ الوقت حان؛ ليعرف وزنه، وعندما كانت تزنه، كان ينوح بصوته مهلّلاً بفرح مثل وعل طاعن في السّنّ. ثم كتبتْ هيدفيكا وزنه على إطار الباب.

بعد ذلك، خرجتُ من الساحة إلى الشمس، كل ما رأيتُه كان وميضاً. عندما ذهبتُ إلى الكنيسة، رأيتُ فرانتيك شتورم يحيط بالهيكل كما لو كان قاطرة. عقله في مكان آخر.

كان لديه نصيبه من العثرات أيضاً. كان يعشق كتابة العبارات المحلّية على الأوراق عن السيقان المكسورة. اختصاصه كان أن يقدّم تقارير صباحية كل اثنين مجاناً حول أعمال الشغب التي انتهتْ بهذيان أو في مستشفى قريب أو عيادة. كل ما كان يرغب فيه هو أن يذهب من أجل الكتابة لصحيفة عالم التشيك، أو أخبار المساء. مات والده لاحقاً، والده الذي كان حافظاً لغرفة المقدّسات. كان على فرانتيك أن يتولاها. لكنه لم يتوقّف عن صياغة المعارك المسكرة داخل رأسه. كان لديه دائماً دقيقة، يذهب فيها إلى غرفته في بيت الكاهن، يغرق في كرسي قديم للأسقف. يقرأ كل ما يجده في يديه حول الطائرات وصانعيها. وحتّى إن كان لديه مئتان من كُتُب الطيران، أستطيع القول إنّه كان يفرك كفَّيْه، ويبتسم كلّما قدّمتُ إليه كتاباً أجده في مستودعي. لم يكن ذلك في مكتبته الصغيرة. كنتُ أنظر إلى عينَيْه وهي تغرورق بالدموع، أتحسّس نظرته وهي تحتضنني، شعرتُ أكثر من ذلك أن أيّام مستودعي الصغير السعيدة قد انتهت. لم تكن لي فرصة أخرى أن أقدّم علاجاً لفرانكلين شتورم. لذلك وقفتُ هناك، مَحمياً بجناحَيْن ضعيفَيْن، يتدلّيان في سلاسل فوق المذبح. الباب مفتوح والقدّيس يرقص، ويقول لفرانتيك بجفاء أن يخرج، ويحمل معه فساتينه. كان لديه بعض الشعائر المتبقّية فقط.

خرجتُ في ظهيرة مشمسة، متوقّفاً عند القدّيس تاديوس في بري ديو. وقفتُ أمامه برهة، قائلاً له كيف تعوّدت الصلاة من أجل الشفاعة، وكيف تسنّى له أن يترك تلك الشاحنات الفظيعة التي تنقل أوراق المسالخ تغرق

في فلتافا. وكيف كنتُ أستمتع بإلصاق النجوم على قبّعتي، وأركع هناك؛ كي أسمعها تعبر. كنتُ أقول إنّ الإشارة جميلة، الطبقة العاملة تزحف في اتّجاه الصليب. وقفتُ هناك، قبّعتي إلى الأسفل، وفجأة فكّرتُ، لماذا لا أركع وأقدّم إليه فرصة أخرى؟! لمَ لا أُصلّي لأجل معجزة أخرى لتاديوس؟ لأن معجزة واحدة فقط ستعيدني إلى عملي، إلى آلتي، إلى مستودعي، إلى الكُتُب التي لا أستطيع العيش دونها. كنتُ في طريقي إلى النزول على ركبتي، مَن سيهرع في اتّجاهي غير أستاذ الفلسفة، الضائع على الدوام، نظّارته تلمع في الشمس مثل منفضة السجائر؟!

منذ أن ارتديتُ قبّعتي، سألني، كيف حال الرجل؟ فكّرت للحظة، وقلت له إنّه ليس هنا. لا أعتقد أن ثمّة خطأً ما. قال الأستاذ خائفاً. لا. قلتُ. هو فقط داخل عاصفة. لكنْ؛ دعني أُخبرك مباشرة، لن يكون هناك مقالات أخرى، لن تكون هناك ملاحق إنجلرمولر مرّة أخرى. نزعتُ قبّعتي بينما كان الأستاذ ينظر إليّ. كان يفرك أصابعه بعنف. سقط على ركبتَيه. أشار إليّ باكياً. أنت تعني أنك الشيخ والشابّ في آن. وضعتُ قبعتي مرّة أخرى، وسحبتُها على عيني، وقلتُ بمرارة. نعم، صحيفة السياسات الوطنية لم تعد، وكذلك الأخبار الوطنية، أتسمعني؟ كنتُ أتعرّضُ للضرب خارج المستودع.

عندما كنتُ عائداً إلى البناية؛ حيث كنتُ أشتغل طيلة ٣٥ سنة، كنتُ جنباً إلى جنب مع الأستاذ، كان يرتعش، يركض أمامي، ويدفعني. عندما قدّم إليّ ١٠ كرونات، وأضاف خمسة أخرى. نظرتُ إلى الأسفل تجاه المال، قلتُ بمرارة: إذا أردتَ مساعدتي، انظر. قام الأستاذ بمسك ذراعي، ناظراً إليّ عبر عدسات سميكة بعينَيْه. تمتم قائلاً: نعم، سأساعدك على الرؤية. قلتُ إنّ ذلك رائع، لكنْ؛ ماذا سأرى. أجابني أني سأرى حظّاً

جديداً. همس لي، بينما كان يترجّل إلى الخلف، وسرعان ما عاد أدراجه، كما لو كان عائداً من مسرح حادث. وعندما عدتُ إلى المدخل، وسمعتُ الجرس في آلتي الهيدروليكية يرتفع بمرح كما لو كان مرتبطاً بمزلقة مع حفلة زفاف مسكرة. كان عليّ أن أتوقّف، لم أستطع التحديق فيها. أعدتُ الوقوف مجدّداً في الشارع.

لا أعلم أين أذهب، وقفتُ وقد أعمتْني الشمس، ولم تأت أيّ من تلك الجمل التي التقطتُها من الكُتُب؛ لتقدّم لي المساعدة تلك الساعة. لكنْ؛ بعد ذلك، عدتُ أدراجي إلى تاديوس، متدحرجاً على ريديو، واضعاً رأسي في يدَيّ، نائماً، أو ربّما متوهّماً، أو ربّما قد غادرتُ العالم برهة؛ لأنني عندما أركع هناك، تكون يداي على عينيّ. رأيتُ آلتي تتحوّل إلى وحش مثل آلات الضغط الأخرى، آلة كبيرة جداً، حيطانها الأربعة الأخرى تجتاح مدينة براغ كلها. رأيتُ نفسي وأنا أضغط الزرّ الأخضر. رأيتُ الآلة تطحن مثل حركة خزّان كهرمائي. المباني تتقلّب مثل فأر في برميل قديم. تتقلّب مثل عجلات. رأيتُ الحيطان تتقدّم، تُدمّر كل شيء يقف في طريقها. ومن نظرة طائر، رأيتُ الحياة في مركز المدينة تمضي كالعادة حتّى وان كانت الضواحي ملتهمة عبر أسنان المدينة الهائلة. ومثل الحيطان الأربعة ركّزتُ على جزء واحد من المدينة. رأيتُ الملاعب والكنائس والمباني الشعبية والطرقات المظلمة وجوانب الشوارع الضيقة تتساقط. لا شيء في وسعه أن يُبعد آلتي عن تدمير العالم. رأيتُ القصر يتداعى مع قبّة المتحف الوطني ونهر الفلتافا يرتفع. الآلة كانت شديدة القوّة كما لو كانت المدينة ورقة قديمة في مستودعي. الحيطان تستجمع قواها، وهي تجمع ما تمّ تدميره. رأيتُ نفسي كما لو كنتُ الثالوث المقدّس وهو يسقط على رأسي، لم أعد أرى شيئاً، لكن شعوري بنفسي كان مسحوقاً، ويُرمَى مع الآجرّ والخشب وبري ديو. كنتُ أسمع فقط القطارات والحافلات وهي

تسحق كلّما التحمت الحيطان ببعضها، لكنْ؛ كان هناك مساحة أخرى فوق الحطام. كان ثمّة هواء آخر فوق الأنقاض. إلى أن أُغلِقَت الحيطان، وأخذ الهواء طريقه، متموّجاً مع صرخة الإنسان الأخيرة. نظرتُ إلى فوق، ورأيتُ كومة هائلة واقفة في سهل مهجور، مكعّباً ذي ٥٠٠ قَدَم، أو ربّما أكثر، ضُغط فيها كل ما يتعلق ببراغ، بمَن فيها أنا، كل أفكاري وكُتُبي التي قرأتُها، حياتي بأكملها ضُغطَتْ هناك. لم تكن شيئاً آخر أكبر من أصغر فأر يُسحَق مع كُتُبي القديمة في مستودعي مع لواء الحزب الاشتراكي.

عندما فتحتُ عينيّ، كنتُ مندهشاً من رؤية نفسي وأنا أركع أمام القدّيس تادوس بري ديو، وللحظة شرعتُ في النظر بصمت إلى صدع يجتاح الخشب. لكنْ؛ بعد ذلك، وقفتُ، ورأيتُ سيارات تعبر، والضوء الأحمر يعبر مع القطارات. الناس يمشون، الناس لا يتوقّفون في شارع سبالينا. إنهم يندفعون من الطريق الوطنية إلى ساحة تشارلز جيئة وذهاباً. وقفتُ هناك منحنياً على حائط بيت الكاهن؛ لأتجنّب الضّربَ. عبر البوّابة وقف فرانتيك شتورم. وبعد أن اجتاز الدرج بقفزات عظيمة، عاد كالعادة في اتّجاه الباحة، كالعادة عاد وانحنى متسائلاً: هل في وسعك أن تكون السيد هانتا؟ وتتظاهر بعودتك إلى الباحة. أجبتُه كالعادة: هذا هو اسمي، سيدي. عندما كان فرانتيك شتورم يقدّم إليّ ظرفاً بريدياً، منحنياً، ثمّ عاد إلى غرفته في بيت الكاهن. كنتُ كلّما قدّمتُ إليه كتاباً، وضعه على سترته في مكتبته. كانت هناك ورقة كرنب تلامس رسالته التي مُلِئت بالتعاليم. عندما فتحتُها، وجدتُ كالعادة ملاحظة لفرانتيك شتورم وهو يقول.

سيّدي، باسم فرنتيك شتورم نشكرك لتقديم كتاب ليندينبرغ روح القدّيس لويس الذي أضاف إلى مجموعتنا الكثير. نثق فيك من أجل أن تشرّفنا بمحاباتك إلينا.

فرنتيك شتورم في زاوية يمُنى، مشيتُ إلى ساحة تشارلز؛ حيث مزّقتُ رسالة الشكر، كنتُ أعلم أنها الأخيرة؛ لأن أيام السعادة القصيرة قد وصلت إلى نقطة النهاية. آلتي قرعت أجراسهم، لقد خانتْني. وقفتُ في ساحة تشارلز أنظر إلى الأعلى، إلى تمثال إغناسيوس دي لويلا راسخاً في واجهة كنيسته. ما رأيتُه كان بريقاً ذهبياً على يمين حوض استحمام سينيكا مستلقياً في اعتدال. كان ذلك قبل أن يشقّ أوردة معصمه، وبذلك أثبتّ لنفسه كم كان على حقّ عندما ألّف الكتاب الذي أعشقه. هدوء العقل.

الفصل الثامن

بينما كنتُ متكئاً على حافة النافذة المفتوحة في كافيتيريا بلاك بروري أشربُ البيرة المحليّة، قلتُ لنفسي: «من الآن فصاعداً، يا ولدي، أنت وحدك. عليك إجبار نفسك على الخروج ورؤية الناس وإمتاع نفسك، وأن تُمثّل حتّى تتخلّى عن الشبح، لأنّك الآن في دائرة من الحزن، والتقدّم يعني الرجوع. هذا صحيح. التقدّم نحو الأصول والعودة إلى المستقبل. عقلك ليس إلا آلة هيدروليكية تسحق الفكرة». لذلك جلستُ هناك في الشمس، أشرب البيرة، وأرى أفواج البشر في ساحة تشارلز، كلهم كانوا من الفتيان، من الطَّلَبَة، ولدى كل منهم نجمة على جبهته، العلامة التي يأخذها كل شخص، بذرة العبقرية التي في عقولهم. وكانت عيونهم تلمع بحيوية. بنفس الدرجة كنتُ مثلهم قبل أن يخاطبني سيدي، ويلقّبني بالمغفل. كنتُ منحنياً على الدرابزين، ومستمتعاً برؤية القطارات تعود تذهب وتأتي. مستمتعاً بشرائطها الحمراء. لديّ كامل الوقت في العالم الآن. أستطيع أن أذهب إلى مستشفى الفرنسيسكان، وأن آخذ نظرة من درج الطابق الأوّل، كما في القصّة صُنع من خشب ألواح السقالات التي اشتراها الفرنسيسكيان في ١٦٢١ بعد أن شُنقت زهرة حكومة التشيك في ساحة المدينة القديمة. أستطيع الذهاب إلى حديقة كنسكي إلى الجناح المشهور؛ حيث تضغط زرّاً هناك، فينفتح الحائط؛ لتخرج الشموع. يبدو ذلك مثل قاعة بيترسبرغ للرعب؛ حيث يخرج في ضوء القمر شخص غريب بستّة أصابع، ويضغط زرّاً بالخطأ؛ ليظهر قيصر من الشمع، ينهره بإصبعه، تماماً كما وصفه يوري تينيانوف في قصّته

«تمثال الشمع». لكنني لا أرغب في أن أمضي إلى أيّ مكان؛ لأنّ كل ما أريده هو أن أغمض عينَيّ، وكل ما سأراه سيكون أكثر وضوحاً من هذا العالم حولي، أفضّل فقط أن أنظر إلى عابري السبيل بوجوههم الحلزونية.

عندما كنتُ صغيراً، كانت لديّ الأفكار الكبيرة نفسها حول نفسي. وللحظة فكّرتُ في كلّ ما يلزمني من أجل أن أكون وسيماً. كان لي زوجان من الصنادل. نوع من الصنادل المفتوحة، صُنع من حزام وكعب فقط، وحاكت لي أمّي جورباً، وحدّدتُ أنا موعداً في خمّارة لوار. بعد ذلك، كان الجدول مبكّراً. لذلك جلستُ هناك أمام لوحة نصائح متفحّصاً التركيب المعدني حول الفتحة، إلى أن أحسستُ بأنني على استعداد بأن أنخرط في الجدول. بدا أن الجدول من الأسبوع الماضي. قرأتُه مرّة أخرى؛ لأنني شعرتُ بأن جوربي الأرجواني الأيمن والصندل قد غرقا في شيء واسع ورطب. لم أستطع النظر إلى أسفل. على كل حال، قرأتُه مرّة أخرى. أين كان اسمي؟ في النهاية، نظرتُ إلى أسفل، رأيتُ صندلي المفتوح بشريط واحد وكعب. صندلي غرق في روث الكلاب. حاولتُ قراءة الجدول مرّة أخرى بلطف، اسماً بعد اسم، كل الأسماء، إحدى عشر اسماً في الفريق الثاني، واسمي في الاحتياط. لكنني عندما نظرتُ إلى أسفل، كنتُ ما أزال واقفاً على روث الكلاب. وعندما نظرتُ إلى أعلى، مَن سأراه وهو قادم من بوّابته غير بنت واعدتها! لذلك قمتُ بفكّ الرباط. سحبتُ قدمي من الجورب الأرجواني، وتركت الصندل والجورب وباقة تحت سبّورة الملاحظات لفريقنا في كرة القَدَم، وهرعتُ إلى الملعب؛ حيث وقفتُ، وفكّرتُ بحظّ أوفر؛ لأنني عندما تعهّدتُ بأن أمضي حياتي وأنا أسحق الكُتُب من أجل النجاح في الحصول على كُتُب جيدة.

في تلك الأثناء، كنتُ قد شربتُ مزيداً من كؤوس البيرة، وأحضرتُ مسنداً آخراً إلى النافذة المفتوحة؛ حيث كنتُ متكئاً على الحافة، أنظر إلى الشمس، وأفكّر فيما إذا كان عليّ أن أذهب، وأن آخذ نظرة على كنيسة

كلاروف برخامها الأحمر، وتمثال الملاك جبريل، وأن أتعرّف على الاعترافات الرائعة للكاهن الذي صاغها على لوح في صندوق، جاء عبره الملاك جبريل إلى إيطاليا. بدلاً من ذلك، أغمضتُ عينيّ بهدوء، وشردتُ؛ لأنني شربتُ البيرة، ورأيتُ نفسي بعد عشرين سنة من كارثة الجورب الأرجواني، وأنا أعبر ضواحي ستيتين؛ حيث صادفتُ سوقاً، وبينما كنتُ أمرّ بين الباعة، لمحتُ رجلاً يحاول بيع صندل وجورب لقَدَم يُمنى. أستطيع أن أقسم أنّهما كانا هما، حتّى وإن كان المقاس عشرة ونصف. وقفتُ هناك مندهشاً بما حدث: إيمان المرء بإيجاد صندله وجوربه، وأن هناك مَن قد يذهب إلى ستيتين من أجل شراء جورب وصندل لجعله وسيماً. خلف ذلك الرجل ذي الإيمان الكبير وقفتْ امرأة عجوز تبيع ورقتَيْن من أوراق الغار، كانت تحملهما بين إصبعَيْها. غادرتُ محتاراً. صندلي قام بدورة كاملة، جاب العالم؛ ليقف في طريقي مرّة أخرى، كما لو كان يسعى إلى عتابي.

بعد أن أعدتُ كأسي الفارغ، عبرتُ سكّة القطار، وأكملتُ طريقي، جلستُ في منتزه أسحق تحت قَدَمَي الثلج المجمّد، العصافير تزقزق. حدّقتُ في الرّضَّع في عربات الأطفال، والأمّهات في المقاعد يتشمّسنَ. وجوههنّ تميل باتّجاه أشعّة الشمس الصّحّيّة. وقفتُ أمام المسبح؛ حيث كان الأطفال يلعبون عُراة، لمحتُ الشرائط امتدّت فوق بطونهم من المطّاط في ملابسهم الداخلية. اعتاد يهود الحاسيديم في غاليسيا ارتداء الأحزمة، الأحزمة القوية التي في وسعها أن تقسم الجسد إلى نصفين، أن تقسم الجانب المقبول الذي يحمل القلب والرئة والكبد والرأس عن الجانب الآخر الذي يضمّ الأمعاء والأعضاء الجنسية. الأشياء التي بالكاد نحترمها. القدّيسون الكاثوليك رفعوا خيط الفصل. فوضعوا طوق رجال الدين مَرئياً عند الرقبة كعلامة على تفوّق الرأس؛ حيث يغرز الله شخصياً أظافره.

بينما كنتُ أنظر إلى الأطفال وهم يلعبون حُفاة، رأيتُ الشرائط على بطونهم، أفكّر في الراهبات اللواتي يَقسمنَ الرأس إلى شرائح تضمّ الوجه

بشريطة واحدة متوحّشة؛ لتحوّله إلى قلنسوة ضيّقة مثل قلنسوة سائقي الفورميولا ون. هؤلاء الأطفال الذين يرشّون الماء لا يعلمون شيئا عن الجنس، رغم ذلك كانت أعضاؤهم التناسلية كاملة مثلما علّمني لاوتزه. عندما فكّرتُ في شرائط الرهبان والراهبات ويهود الحاسيديم فكّرتُ في الجسد البشري كما لو كنتُ أفكّر في ساعة رملية. ما هو في الأسفل كان في الأعلى، وما هو في الأعلى كان في الأسفل. زوج من المثلّثات المغلقة مثل ختم سليمان. التطابق بين كتاب شبابه، و«أغنية الأغاني»، ونضجه في معرفته بكتاب سِفْر الجامعة. فجأة جذب عينَيّ القدّيسُ أغناسيوس لويلا، ووميض هالة البوق المذهّب. فكّرتُ كم كان غريباً ضوء هذه التماثيل الأدبية. أكوامسكي، سافاريك، بالاكي. دائماً هم جاثمون على الكراسي، وحتّى ماشا الرومنسي يحتاج إلى أن ينحني على عمود. تماثيلنا الكاثوليكية مليئة بالحياة، مثل الرياضيين الذين ثبّتوا الكرة فوق الشبكة، أو أكملوا المئة متر في اندفاع، أو في زوبعة من الأحاديث. أعينهم المصنوعة من الأحجار الرملية وأكتافهم ترتفع كما لو كانت في طريقها إلى نقطة العودة إلى الله، أو مبتهجين بهدف الفوز.

اجتزتُ الشارع، وتركتُ الشمس من أجل سيزاك الذي كان مظلماً؛ بحيث أضاءت وجوه الزائرين مثل أقنعة، وكانت أجسادهم تغرق مع الظلال. وعندما مشيتُ إلى الأسفل في اتّجاه المطعم، قرأتُ هذه البيانات من خلف شخص. هذا المنزل الذي كتب فيه كاريل هاينك ماشا كتابه ماي. جلستُ، وشعرتُ بالذعر سريعاً عندما نظرتُ في السقف، ورأيتُ المصابيح. كانت مثل مستودعي. لذلك هرعتُ، وقفزتُ خارجاً. بمَن سأصطدم أمام المطعم بغير صديق قديم كان ثملاً مثل ملك، لكنْ؛ سرعان ما أخرج حافظة نقوده. بعد أن بحث فيها كثيراً، أخرج وثيقة من عيادة لإزالة السموم تقول: « هذه الورقة تشهد أن الموقّعين أدناه لا يوجد لديهم كحول في مجاريهم الدموية هذا الصباح».

قمتُ بلفّها، وأعدتُها إليه، وقال لي صديقي إنّه يخطّط كي يبدأ حياة جديدة، ولم يشرب شيئاً غير الحليب طيلة يومَيْن. والحليب جعله مشوّش الذهن، لذلك أرسله المدير إلى المنزل في ذلك الصباح، بسبب سلوكيات تتعلّق بالشرب؛ ممّا تسبّب في طرده يومَيْن. لكنه عاد مباشرة إلى عيادة إزالة السموم. وعندما قاموا بإجراء اختباراتهم، وأنه لا وجود ولو لقطرة من الكحول في دمه، أخذوا الهاتف، وأخبروا مديرهم. متّهمين إيّاه بتدمير مشاعر العامل. لذلك من أجل الاحتفال بإدانة سيّده في مفاصل وثيقة رسمية حول دمه النظيف، كان يُسرف في الشرب، إلى أن دعاني إلى مشاركته فيما كنّا نقول عنه السباق الأعرج الذي وُفّقنا فيه بنجاح مرّة واحدة فقط بعد محاولات عديدة. كانت فترة طويلة؛ بحيث نسيت تفاصيل التجربة. نسيتُ صديقي أيضاً، ونسيتُ اسمه. كنتُ قد مدحتُه طويلاً؛ كي يفوز عليّ. انطلقنا من فلاشوفكا، وسرنا إلى «القرن الصغير»، وبعدها إلى «الجنّة الضائعة»، وبعدها إلى ميلر، وإلى «معطف من الأسلحة». في كل مكان نتوقّف فيه، كنّا نطلب زجاجة واحدة كبيرة من البيرة، لأنه علينا أن نأخذ قسطاً من الراحة؛ كي نأخذها إلى جاروليميك ولادس. قبل أن نرجع إلى عالم الكافيتيريا، عبرنا هوسمان وبريويري، وبعد ذلك عبرتُ أمام الملك فاتسلاف إلى بوديل أو كروفتا، وأخيراً إلى دودا أو كروفتا قبل القدوم إلى منزل يمتدّ على بالموفكا ومقهى شولر، لو لم يكن الوقت متأخراً كنّا سنجتاز آخر خطّ. نجري في سباق، التصق بي ثملاً، ولكنْ؛ في النهاية تمكّنتُ من رميه جانباً، وتركت سيزاك، قاطعاً البقع الحلزونية في ساحة تشارلز؛ حيث كان عَبَدَة الشمس يتحرّكون إلى المقاعد التي هي الآن في الظلّ. في طريقي إلى بلاك بروبري تناولتُ كأساً من الرّمّ، وعلبة بيرة، وأضفتُ بعض النبيذ.

لن نُظهر أفضل ما لدينا حتّى نُسحَق تماماً. رأيتُ ساعة المدينة الجديدة من بين الفروع تلمع في الظلمة. مثل طفل حلمتُ أن أصبح مليونيراً، وأن

أشتري عقارب وأرقام فوسفورية لكل ساعات المدينة. الكُتُب المتهرّئة تقوم بمحاولة أخيرة من أجل تمزيق أربطتها. لوحة رسّام أشبه بوجه من الفطر. نسيم من نسائم الفلتافا يعبر الساحة. أحببتُ ذلك، طالما أحببتُ المشي عبر لاتنا كلّ مساء. رائحة النهر تلتقي رائحة المنتزه. لكن رائحة النهر الآن ما تزال تملأ الشوارع. أذهب إلى بابانيتشك، أجلس هناك، وأطلب بيرة بذهول، طنّين من الكُتُب ينقرضان فوق رأسي، سيف يومي لديموقليس علّقتُه فوقي. أنا طفل يغادر المدرسة بتقرير سيئ عنه. الفقاعات ترتفع مثل خصلة شعر. ثلاثة شبّان في زاوية يعزفون الغيتار، ويغنّون بلطف. كل ما هو على قيد الحياة لديه عدوّ. حزن العالم جاثم تحت رغبة تجديد الذات. ذلك النموذج اليوناني وهدفه، الجمنازيا والجامعات الإنسانية.

لكنْ؛ في مجاري براغ هناك جيشان من الفئران المسجونة في معركة الصراع بين الحياة والموت. الساق اليمنى مهترئة على مستوى الركبة. تنانير زرقاء وبنفسجية. أياد ضعيفة ترتعش مثل أجنحة. جانب هائل من عضلة معلّقة في صنّارة لجزّار ريفي. أسمع مراحيض متوهّجة.

فجأة فُتح الباب، واندفع عملاق مع كتلة ضخمة من الدخان من النهر، وقبل أن يعلم أحد ما كان يحدث، أخذ كرسياً، حطّمه إلى نصفين، ولاحق الزبائن المرتعبين في زاوية. اصطفّ الشبّان الثلاثة على الحائط مثل حلزون تحت المطر. ولكنْ؛ في اللحظات الأخيرة، عندما أخذ الرجل نصف كرسي، وظهر أنه مستعدّ ليقوم بجريمة قتل، كان يغنّي، وقبل أن يغنّي «أيّتها البطّة السوداء، أين كنتُ؟» علّق نصف الكرسي جانباً، ودفع للنادل ثمن ما قام بتدميره، ثمّ عاد إلى الزبائن المرتعدين قائلاً: « سادتي، أنا مساعد الشانق»، وعندما رحل، كان منزعجاً وحزيناً. ربّما لأنه كان في السنة الأخيرة الجزّار المشرف على محلّ لبيع اللحوم في هولشوفيتسه. وضع سكّيناً على رقبتي،

ودفعني إلى زاوية، أخذ ورقة، وروى لي قصيدة حول جمال الريف في ريكاني، ثمّ اعتذر لي، وقال لي إنّه لم يجد أيّ طريقة أخرى؛ ليُنصت الناس إلى قصائده.

دفع لي ثمن بعض البيرة، وثلاث زجاجات من النبيذ، خرجتُ؛ لأستمتع بالنسائم، وأسلك طريقي في اتّجاه ساحة تشارلز؛ حيث كانت ساعة برج المدينة الجديدة تشير إلى توقيت لا فائدة منه. لا مكان أذهب إليه. كنتُ أطوف في الفراغ. ثمّ وجدتُ نفسي أمشي أسفل لازارسكا، ثمّ عدتُ إلى جانب الشارع، أفتح باباً خلفياً، تحسستُ الجدار بحثاً عن الزرّ الكهربائي. عندما أضأتُ النور، كنتُ هناك، عائداً إلى قبوي؛ حيث أمضيت ٣٥ سنة وأنا أسحق الأوراق المهملة في آلتي الهيدروليكية. لماذا قال لاوتزه: أنْ تُولَد يعني أن تخرج، وأن تموت، يعني أن تدخل! أمران يملآن عقلي حيرة جديدة ومتزايدة. فوقي سماء مرصّعة بالنجوم وعملي أيضاً، عملي المرعب يحتاج إلى شهادة إلهية. أضع في البرميل أكوام الأوراق المتّسخة، أضغط الزرّ الأخضر، عين الفأر حدّثتني عمّا هو أكثر أهمّيّة من النجوم المرصّعة. حبيبتي الغجرية قدمتْ إليّ في الحلم، وعندما كانت آلتي تستمرّ في عملية السحق مثل هليكون في كفّ عازف هارمونيكا. أبعدتُ غلاف هيرونيموس بوش من صورة كتابي المقدّس، فوجدتُ كتاب الملكة بروسيا. سوفي شارلوت قالت لخادمتها لا تبكِ؛ كي تُرضي فضولك، سأذهب لأرى ما الذي أخفق ليبنتز في تعليمي إيّاه. عليّ أن أجتاز حدود الوجود وحدود اللاشيء.

قُرع الجرس، وبرز اللون الأحمر، تراجع الجدار، وضعتُ الكتاب جانباً، وملأتُ البرميل. جسدها مغطّى بالزيوت، إنها سلسة كقطعة ثلج، تبدأ بالذوبان. آلة بابني الهائلة ستفعل ما فعلتُه أنا تماماً.

السيدان سارتر، كامو، عبّرا عن هذا الأمر بجدّيّة، خصوصاً هذا الأخير.

الأغلفة اللامعة تُغازلني، وهناك شيخ بسترة زرقاء وحذاء أبيض يقف على السّلّم. يندفع الغبار مع رفرفة أنيقة لجناحَيْن.

حلّق ليندبيرغ فوق المحيط. وضعتُ لنفسي فراشاً من الأوراق القديمة، ما تزال خطيبتي لي، لا يوجد شيء أشعر بالعار من أجله، مثل سينيكا التي رميتُ فوقها قَدَمَاً، كانت تقف في الحوض، عندما انتظرتُ لحظة؛ كي آخذ جزءاً آخر صارخاً. انطويتُ في شكل كرة؛ كي أرى كيف كانت، ثمّ وقفتُ على ركبتي، ضغطتُ الزّرّ الأخضر، وعدتُ إلى فراشي المكُوّن من الأوراق القديمة والكُتُب. محتضناً نوفاليس بحميمية، إصبعي عثر على جملة طالما ملأتني بانقسامات كثيرة. ابتسمتُ بسعادة؛ لأنني كنتُ أكبر بكثير من مانسا وملاكها. أنا أدخل إلى عالم، لم أدخله من قبل؛ أين أجد جملة تقول:» هدف كل حبيبة هو مركز الحديقة في الفردوس». بدل أن أضغط الكُتُب النظيفة، في ميلانتريش في مستودعي، سألاحق سينيكا، سألاحق سقراط، وهنا، في آلتي في قبوي، أختار طريقة للسقوط وللصعود. حتّى وإن ضغطت الحيطان ساقيّ إلى ذقني، أرفض أن أخرج من الجنّة. أنا في مستودعي، ولا أحد يملك القدرة على طردي. زاوية من الكُتُب مستقرّة تحت ضلع. أنا أتأوّه، قُدّر لي أن أغادر الحقيقة الأزلية المعلّقة في رفّ عالمي الخاص. منكمشاً في ذاتي مثل مطواة جيب لطفل صغير. في لحظة الحقيقة، أرى الفتاة الغجرية الصغيرة، الفتاة التي لا أعرف اسمها، نحن نُمسك بطائرة ورقية في سماء شتوية. هي تُمسك بالحبل، أنا أنظر إلى الأعلى، الطائرة الورقية أخذت ملامح وجهي الحزين، والغجرية تُوجّه إليّ رسالة من الأرض، أراها تسلك طريقها عبر الحبل، أكاد أصل إليها الآن، أمدّ يدي، أقرأ الأحرف الطفولية الكبيرة: إلونكا. نعم هذا كان اسمها.

بوهوميل هرابال(*)

يُعد بوهوميل هرابال أبرز أديب تشيكي في القرن العشرين. ولد في مدينة برنو نتيجة علاقة عابرة بين أمه ماري وأحد شباب المدينة، ثم تزوجت ماري فرانتيشك هرابال محاسب مصنع «البيرة» في مدينة بولنا، فوجد فيه نعم الأب. انتقلت العائلة الجديدة إلى مدينة نيمبورك على نهر إلْبِه، حيث تلقى بوهوميل تعليمه وأمضى سنوات يفاعته. ظهرت تجارب هذه المرحلة في ثلاثيته القصصية "بلدة على شاطئ النهر" وفي "البلدة التي توقف فيها الزمن". لم يبدِ هرابال اهتمام بالمدرسة وواجباتها، بقدر ما اهتم بالحياة الملونة في معمل البيرة وبجوزيف عم پيپن شقيق زوج أمه الذي أتى بقصد الزيارة، فبقي أربعين سنة حتى وفاته، والذي أطلق هرابال على أسلوبه في الحديث صفة «النهر المتدفق» واتّبعه في معظم كتاباته، ولاسيما في قصته الطويلة «آلام العجوز ڤرتر» التي غير عنوانها ونشرها في عام ١٩٦٤ بعنوان "دروس رقص للكبار والمتقدمين . بعد حصوله على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٥ انتسب هرابال إلى كلية الحقوق، وصار يحضر في الوقت نفسه محاضرات تاريخ الأدب والفن والفلسفة، ولم يتمكن من إنهاء دراسته حتى عام ١٩٤٦ بسبب إقفال الجامعة في فترة الاحتلال النازي لبلده، فعمل في أثناء الحرب في الخطوط الحديدية وفي شركة للتأمين وبائعاً متجولاً، ثم في معمل لصهر الحديد منذ عام ١٩٤٩. وتعرّض في عام ١٩٥٢ لحادث مؤلم اضطره إلى الانتقال إلى مستودع لجمع الورق القديم. وقد تجلت تجارب هذه المرحلة في بعض أبرز أعماله القصصية

---

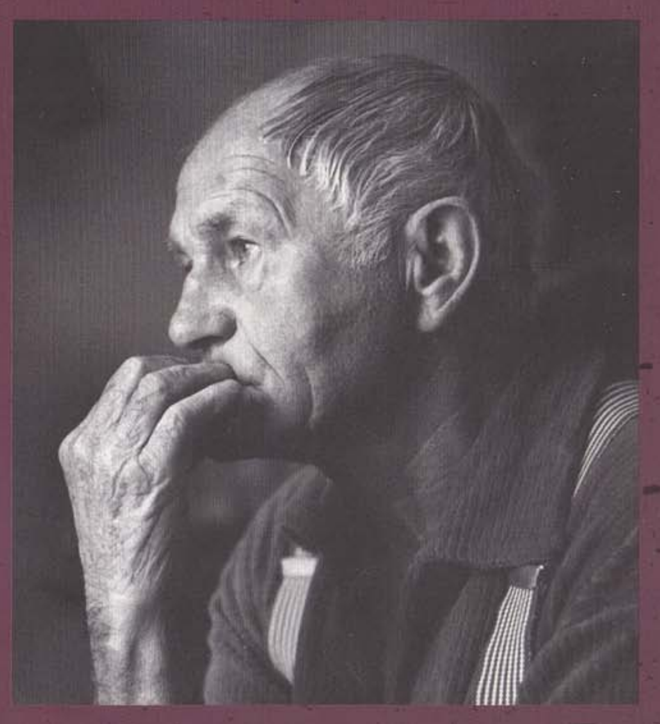
*) المصدر: الموسوعة العربية.

مثل "عزلة صاخبة جداً" . وفي الجزء الأول من سيرته الذاتية الثلاثية "أعراس في البيت" وفي "خدمتُ ملك إنكلترا" بدأ هرابال الكتابة الأدبية منذ ثلاثينيات القرن العشرين، لكنه لم ينشر أياً من كتاباته حتى الخمسينيات، ولم يتفرغ كلياً للأدب حتى عام ١٩٦٣. لكن السلطات السوڤييتية في تشيكوسلوفاكيا منعته من النشر منذ عام ١٩٧٠ فصار ينشر بعض أعماله في مجلات المهجر ودور نشره. نشر في عام ١٩٧٥ مقالة في النقد الذاتي في مجلة «تڤوربا» Tvorba في براغ، أدت إلى التساهل معه رقابياً، ولكن بحذر بالغ. وبعد تفكك المنظومة الاشتراكية عام ١٩٨٩ وقيام جمهورية تشيكيا صدرت مؤلفاته الكاملة بين ١٩٩١-١٩٩٧ في تسعة عشر مجلداً عن دار نشر "خيال براغ" وبلغ مجموع ما طُبع من مؤلفاته باللغة التشيكية حتى اليوم ثلاثة ملايين نسخة، كما تُرجمت بعض مؤلفاته البارزة إلى ثلاثين لغة، وكان أحد أسباب شهرته عالمياً هو تحويل روايته "قطاراتٌ مراقبة جيداً" إلى فيلم سينمائي نال جائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي في عام ١٩٦٧. كما أعيد اقتباس الرواية للسينما مرة ثانية في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧١.

اعتمد هرابال في موضوعات رواياته وقصصه على أحداث من الحياة اليومية يتورط فيها أناس عاديون من دون أن تكون لهم سلطة على سير الأمور أو قدرة على استيعاب ما يجري. ويتسم أسلوبه بقدرة تعبيرية بصرية عالية، ويميل إلى الجمل الطويلة المتدفقة، إلى جانب حس فكاهي ساخر وساحر، يعتمد كثيراً على شخصية (الأحمق الحكيم) الذي تبدر عنه في اللحظات الحرجة أفكار في غاية العمق.

توفي هرابال في أحد مستشفيات براغ بعد أن سقط من شرفة الطابق الخامس عندما كان يطعم الحمام البري على ما يبدو. وقد شك بعضهم في كون سقوطه انتحاراً وليس حادثاً، ولاسيما أن الأسلوب قد ورد في مشهدين من أعماله.





بوهوميل هرابال: يُعد بوهوميل هرابال أبرز أديب تشيكي في القرن العشرين. ولد في مدينة برنو نتيجة علاقة عابرة بين أمه ماري وأحد شباب المدينة، ثم تزوجت ماري فرانتيشك هرابال محاسب مصنع «البيرة» في مدينة بولنا، فوجد فيه نعم الأب. انتقلت العائلة الجديدة إلى مدينة نيمبورك على نهر إلِبه، حيث تلقى بوهوميل تعليمه وأمضى سنوات يفاعته. ظهرت تجارب هذه المرحلة في ثلاثيته القصصية ... (في داخل الكتاب عرض مطول لحياة الكاتب (ص ٧)).

منشورات المتوسط

«أفضل كتّابنا اليوم».

«كتاب واحدٌ من كتبِ **بوهوميل هرابال**، يختصر كلَّ ما عجزنا نحن جميعاً عن تقديمه لأجل إنسان متحرر، رغم كل ما نفعله بإيحاءاتنا واحتجاجاتنا الصّاخبة.» ... **ميلان كونديرا**

نشر بوهوميل هرابال هذه الرواية بنفسه في عام ١٩٧٦، ولم تُنشر رسمياً حتى العام ١٩٨٩ بسبب رقابة الدولة البوليسية وقتها. تروي "عزلة صاخبة جدا" قصة رجل عجوز أبله يعمل في إتلاف الورق في براغ؛ يحفظ ويجمع أعداداً كبيرة من المخطوطات والكتب النادرة والمحظورة من خلال عمله. هي حكاية جامع معرفة مهووس ينتصر على الدولة البوليسية التي أرادت أن تنتصر على المعرفة ... **الناشر**

هرابال هو صرخة ضد نهاية الإنسانية، وكتابه "عزلة صاخبة جداً" هو إنقاذ من اللامبالاة القاتلة الفعالة في قتل الحرف أكثر من أشدّ آلات الإتلاف تعقيداً.» ... **نيويورك تايمز**

أطلقت حكايات بوهوميل هرابال عن الناس العاديين ثورة سينمائية في وطنه، وأصبحت الحانة التي اعتاد على ارتيادها في براغ مزاراً لكبار الشخصيات. أثبت هرابال أنه أسطورة زمنه.» ... **صحيفة الغارديان**



المتوسط